

البيِّنَاتُ وَالنَّافِي

الحياة الاقتصادية في إقليم غرناطة
في عصر المرابطين والموحدين

العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية

تقدمت الحياة الاقتصادية في إقليم غرناطة خلال عصر المرابطين والموحدين على أثر ما أبداه المرابطون وخلفاؤهم الموحدون من حرص على النهوض بالمغرب والأندلس في شتى المجالات، فزاد الإنتاج الصناعي والزراعي والتجاري وتدفقت الأموال وارتفع الدخل العام للبلاد،^(١) وقد عبر ابن أبي زرع عن الرخاء الذي تمتعت به البلاد في ظل المرابطين فقال: «وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناها القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، والتماز ثمانية أوسق بنصف مثقال»^(٢).

وقد أشار المراكشي في كتابه المعجب إلى مدى الرخاء والأردهار الذي كانت تنعم به البلاد في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله «ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم كثيرة تحضبت، وانتشار أمن، ودرور أرزاق والتساخ معاشين لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها واستمر هذا صدراً من إمارة ابن يوسف»^(٣). كانت بعض هذه العوامل طبيعية تتعلق بإقليم غرناطة^(٤)، ونفسه، والبعض الآخر عوامل

(١) ابن المؤقت: محمد بن محمد بن عبد الله: السعيا الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية: جزءان - طبع حجر - مراكش، ١٣٣٥ هـ - ج ١، ص ٨٩، ابن القاضي أحمد بن محمد: جذوة الاقباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس: طبعة حجر، سنة ١٢٢٠ هـ، ص ٤٣٤٨ - السلاوي: الاستقفا في أخبار دول المغرب الأقصى: ج ١، ص ٤٨، يذكر ابن خلدون في مقدمته أن بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين كانت متسعة وجباية صوفورة ابن خلدون: المقدمة، دار الفلم، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨١، ص ٣٦٧، الفوري: نهاية الأرب: ج ١، ص ٢٣.

(٢) مخطوط مجلد ٢، ص ٢٣٩ - S.P Scott: History of Moorish Empire, p. 239.

(٣) ابن أبي زرع: الأئمة المظرب: ص ١٦٧.

(٤) عن طبيعة إقليم غرناطة وثوراته الطبيعية سواء الزراعة أو المعدنية انظر الإدريسي: نزهة المشتاق: طبعة (د) ص ٢٠٠، ابن سعيد: المغرب في خلق المغرب: ج ١، ص ١٤٣، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١، ص ٩٨، ص ٤٩٩ وما بعدها، اللطحة البندرية: ص ٢٢، الحميري: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٩، ص ١١١، ص ١٩٢، ياقوت: معجم البلدان: ج ٥، مادة غرناطة، المقرئ: نفع الطيب: ج ١، ص ١٤٨، ص ١٤٩، ص ١٧٧.

سياسية طرأت على الإقليم بدخوله في حكم المرابطين ومن بعدهم الموحدين^(١) بسياستهم الجادة في تشجيع النشاط الاقتصادي والاهتمام بالزراعة والصناعة والتجارة.

العوامل الطبيعية:

شهد إقليم غرناطة تقدماً كبيراً في النشاط الاقتصادي بسبب طبيعة الإقليم ذاته وما تميز به من خصوبة أراضيه وكثرة أنهاره التي ساعدت على قيام زراعة ناجحة في قرى ومدن الإقليم، بالإضافة إلى وفرة المادة الخام فقامت صناعات كثيرة وازدهرت، هذا إلى جانب شبكة الطرق البرية والبحرية التي ربطت قرى إقليم غرناطة ومدنه بعضها ببعض كما ربطت الإقليم بسائر أقاليم الأندلس إلى جانب الطرق التي ربطت بين إقليم غرناطة والعالم الخارجي.

ففي مجال الزراعة، تمتع إقليم غرناطة كما سبق أن ذكرت بسطح متميز وتربة خصبة وأنهار متعددة ساعدت على ازدهار الزراعة ويؤيد ذلك وصف الحميري لإقليم غرناطة إذ قال: «وفحص البيرة»^(٢) - وهي أصل غرناطة - أزيد من مسافة يوم في مثله يصرفون فيه مياه الأنهار كيف شاءوا كل أوان من جميع الأزمان وهو أطيب البقاع وأكرم الأرضين تربة ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم، لا تعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص»^(٣).

ولعل خصوبة إقليم غرناطة ووفرة مزروعاته^(٤)، وثراء سكانه كانت من الأسباب التي

(١) عن دخول إقليم غرناطة تحت حكم المرابطين ثم الموحدين انظر الباب الأول ص ٢٠، ص ٣٣.

(٢) الفحص هو البسيط الأخضر وقد سبق التعريف به عن فحص غرناطة، انظر ابن الخطيب:

الإحاطة: ج ١ ص ٩٩ هامش ١، ٢، ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة: ص ١٨٧ هامش ٣، طبعة ١٩٧٩، العراق.

(٣) الحميري: الروض المعطار: ص ٢٣.

(٤) عن خصوبة إقليم غرناطة انظر ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، ص ٩٩، اللحمحة البديرة،

ص ٢٥، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٥ ليدن سنة ١٩٠٩ م، ابن

سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ٢ ص ١٠٢، ص ١٠٣، ابن غالب: فرحة الأنفس، ص

٢٨، ياقوت: معجم البلدان: ج ٥ مادة غرناطة، المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٤٨، ص

دعت نصارى غرناطة^(١) إلى استدعاء ابن رزمير (ألفونس الأول ملك أراغون) لغزو غرناطة وتملكها إذ أطمعوه فيها لما لها من «الفضائل على سائر البلاد وكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق»^(٢).

كما يضيف ابن الخطيب «ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعة بعد زريعة ورعى بعد رعى طوال العام»^(٣) ويصفها العمري في كتابه مسالك الأبصار بقوله وهي - أى غرناطة - «كثيرة المطر والأنهار والبساتين والشجر والفواكه ولها نهران شليل وحدرة»^(٤).

وهكذا وُصف إقليم غرناطة بأنه تربة خصبة وأودية طويلة تخرقها الأنهار وترويه الأمطار وساعد ذلك كله على تعاقب الزراعة في هذا الإقليم طوال العام، ومن أهم هذه الأنهار نهر شليل الذي ينبع من جبل شلير ويتدفق عندما تذوب الثلوج فيغذى الأودية^(٥) ويروى البقاع، وكان جبل شلير مصدراً هاماً للمياه عندما تذوب الثلوج التي تغطيه طوال العام فيتفرع منه أنهار وجداول صغيرة^(٦)، بالإضافة إلى نهري حدرة^(٧) والمنصورة^(٨)،

(١) يسميهم ابن الخطيب بالمعاودة، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٩ - ص ١٤٤، عن حملة ابن رزمير واستدعاء نصارى غرناطة له، انظر ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ ص ٦٩، ص ٧٠ وما بعدها، مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية: تحقيق عبد القادر رامدة ص ٩١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٩، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨، اللوحة البدرية: ص ٢٢.

(٤) العمري: مسالك الأبصار: وصف أفريقية والأندلس ص ٣٤، ص ٣٥ عن شليل وحدرة، انظر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٩٠ هامش ٤، ص ١٩١ هامش ٣، شكيب أرسلان: الحلل السندية: ص ١٢٩.

(٥) محمد بن علي الشباط: صلة السمط المعروف باسم تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، استخراج الجزء الخاص بالأندلس أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد ١٤ طبعة سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨، ص ١١٣، ص ١١٤، طبعة سنة ١٩٧١ ص ١٤٠، ص ١٤١، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١١٧، ص ١١٨ الحميري: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ١٢٢.

(٦) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص ١٤٠، ص ١٤١، تحقيق إسماعيل العربي، طبعة الجزائر، سنة ١٩٨٢ م، ابن الشباط صلة السمط المعروف باسم الاكتفاء، ص ١٤٥، العمري: (وصف أفريقية) ص ٣٤، ص ٣٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٤، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٦، الحميري: الروض المعطار، ص ٢٣، الإدريسي: نزهة المشتاق: (ط. د) ص ٢٠٣.

(٧) العمري: المصدر السابق: ص ٣٧، القلقشندي: نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٥، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ١٩٠ هامش رقم ٤.

(٨) ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص ٣٤، حاشية رقم ٨.

وشهد إقليم غرناطة أنهاراً موسمية مثل وادي المرية^(١) الذي يفيض شتاءً ووادي مالقة الذي يفيض في الربيع^(٢)، وبالإضافة إلى الأنهار والأودية التي ذكرت وجدت في إقليم غرناطة العيون أيضاً^(٣) وأسهمت هذه العيون والأنهار والأودية وكذلك الأمطار في جعل إقليم غرناطة إقليمًا خصبًا صالحًا للزراعة طوال العام^(٤).

وقد توافرت لإقليم غرناطة أيضاً المادة الخام التي ساعدت على ازدهار الصناعة في عصر المرابطين وخلفائهم الموحديين.

فقامت عدة صناعات أهمها صناعة النسيج^(٥) وصناعة السفن^(٦) وصناعة بعض الأدوات من النحاس والحديد^(٧)، بالإضافة إلى عدة صناعات أخرى ستذكرها فيما بعد.

وقد اشتهر إقليم غرناطة بإنتاجه الوفير من المعادن مثل الذهب والفضة والحديد.

(١) العمري: المصدر السابق: ص ٤٦، القلقشندي: نفس المصدر: ج ٥ ص ٢١٧.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج ١، ص ٤٢٣.

(٣) العمري: نفس المصدر: ص ٣٥، القلقشندي: نفس المصدر: ج ٥ ص ٢١٥، الحميري: نفس المصدر، ص ٢٣، ص ٤٥.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨، اللوحة البدرية، ص ٢٢.

(٥) ابن غالب: فرجة الأنفس: ص ٢٨٣، الإدريسي: نزهة المشتاق: (ط. د) ص ١٩٧، ياقوت:

معجم البلدان، ج ٥ ص ١١٩، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا: تحقيق إسماعيل العمري، ص

١٤٠، الطبعة الثانية، الجزائر، سنة ١٩٨٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١ ص ٤٢٤،

العمري: (وصف أفريقيا) - ط ٤٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٥، ص ٣١٧.

ابن الخطيب: مشاهدات، ص ٢٣١، ص ٨٢، هامش رقم ٢، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص

٢٩٨، الحميري: الروض المعطار، ص ٢٤، ص ٢٨٤، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٧٨،

ص ١٨٧، ج ٤ ص ٣٠٦، طبعة سنة ١٩٤٩، ج ٣، طبعة بيروت ص ٢١٩، ص ٢٢٣.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥ ص ٢١٧، ص ٢١٨، العمري: المصدر السابق ص ٤٥، ص

٤٧، الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٦، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص ١٩٦،

هامش رقم ٢، طبعة ١٩٧٩، العراق.

(٧) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ١٤٠، الإدريسي: نزهة المشتاق، (صفة المغرب) ص ١٩٧، ص

١٠٢، العمري: وصف أفريقيا، ص ٤٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٩،

الحميري: الروض المعطار، ص ٢٤، ص ١٨٤.

والرصاص والنحاس^(١) بالإضافة إلى معدن المرقشيتا^(٢) واللازورد^(٣) والملح^(٤) والياقوت الأحمر^(٥) وذلك فضلاً عن مقاطع الرخام التي تستخرج من البيرة^(٦).

وإلى جانب العوامل الطبيعية السابقة التي تمتع بها إقليم غرناطة وساعدت على ازدهار كل من الزراعة والصناعة كان للطرق التجارية أثر في إنعاش حركة التجارة الداخلية والخارجية، فقد تمتع إقليم غرناطة بشبكة من الطرق البرية ربطت بين مدن الإقليم داخلياً وخارجياً^(٧) بالإضافة إلى الطرق البحرية^(٨) وكثرة موانئ الإقليم كالمرية والمنكب ومالقة^(٩) التي كانت تخرج منها الأساطيل التجارية محملة بالبضائع آتية إليها بما تحتاجه البلاد فانتعشت التجارة الداخلية والخارجية.

وهكذا كان للعوامل الطبيعية أكبر الأثر في إنعاش الاقتصاد وتقدمه في إقليم غرناطة.

- (١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، اللوحة البديرة، ص ٢٢، الحميري: المصدر السابق، ص ٢٤، علي بن يوسف الحكيم (أبو الحسن) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقق حسين مؤنس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠، ص ٨٥.
- (٢) «المرقشيتا أو المرقشيطة: هو حجر ذو خواص طيبة يغلب على الظن أنه البزموت وذكر ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة ذهبى وفضى ونحاسى وحديدي كل صنف يشبه الجوهر الذى إليه فى لونه» راجع أبى الحسن على بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٦٠ م، ص ٢٦، حاشية ٩، حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٦٧، ص ٥٦٠ حاشية رقم ١.
- (٣) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٢٨٣، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨.
- (٤) ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٨٢، هامش ١.
- (٥) المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٥٨، طبعة سنة ١٩٤٩.

Scott: Hist. of the MoorishEmpie, Vol. 111, P. 628.

- (٦) ابن غالب: المصدر السابق: نفس الصفحة.
- (٧) عن الطرق البرية (الداخلية والخارجية) انظر ص.
- (٨) عن الطرق البحرية انظر ص ١٥١.
- (٩) عن موانئ إقليم غرناطة انظر الإدريسي: نزهة المشتاق (صفة المغرب والأندلس) ص ١٩٧، ص ١٩٩، ص ٢٠٠، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص ١٤٠، ص ١٤١ طبعة سنة ١٩٨٢ م، العذرى: نصوص عن الأندلس، ص ٨٦، ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ج ١ ص ٤٢٢، ص ٤٢٣، ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٢، ابن الخطيب: اللوحة البديرة، ص ٢٩، العمرى (وصف أفريقية والأندلس) ص ٤٥ إلى ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٧.

العوامل السياسية:

أما العوامل السياسية فقد لعبت هي الأخرى دوراً هاماً في ازدهار الاقتصاد في بلاد المغرب والأندلس عامة وإقليم غرناطة خاصة، فقد أثرت سياسة أمراء المرابطين وخلفائهم الموحديين في ازدهار النشاط الاقتصادي سواء في الزراعة أو الصناعة أو التجارة، فأسهموا في رفع مستوى الإنتاج في البلاد سواء في المغرب أو الأندلس، وفوفروا الأمن والطمأنينة للسكان وقضوا على الفتن والحروب^(١) ونقلوا الصراع إلى أرض نصارى أسبانيا، ووفروا لرعاياهم قدراً كبيراً من الأمان^(٢)، وبالأمن والاستقرار الذي أشاعه المرابطون استطاع السكان استثمار الأرض^(٣) ومضاعفة الإنتاج الزراعي، إذ أن شعور المزارع بالأمن والاستقرار دفعه إلى زيادة الإنتاج لشعوره أن ثمره جهده لن تضيع عبثاً فعمل على تنمية الإنتاج ومضاعفته^(٤).

وكان المزارعون هم أكثر الناس تضرراً بالاضطرابات والحروب الداخلية المستمرة قبل عهد المرابطين، فلذا نشبت حرب بين أميرين فإن من الوسائل المتبعة ضد الطرف الآخر

(١) كانت الحروب بين مسلمي الأندلس ونصاري أسبانيا منذ أيام المنصور بن أبي عامر قائمة على انتساف الزروع في مواسمها واشتد ذلك في أيام ملوك الطوائف، انظر ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص ٦٤، ص ٦٥، ص ٧٨، عبد الله بن بليقن: التبيان، ص ١٠١، محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص ١٣٩، ص ١٤٠ - المجلدان السابع والثامن طبعة سنة ١٩٥٩ - سنة ١٩٦٠ الحميري: الروض المعطار، ص ٩٢.

(٢) عن المعارك بين المرابطين ونصاري أسبانيا انظر ابن أبي ررع: الأئيس المطرب، ص ١٤٦، ص ١٤٨، ص ١٥٦، ص ١٥٧، ص ١٥٩، ص ١٦٠، ص ١٦١، ص ١٦٤، طبعة دار المنصور، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول، ص ١٠١، ابن القطان: نظم الجمان، ص ٥، ص ٦، ص ١٠، ص ١٣، ص ١٤، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٤ ص ٥٠، ص ٨٠، ص ٨١، ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ١١٤، السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ٦١، مكي: وثائق تاريخية، ص ١٥٧.

(٣) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٠٢، ص ٤٠٤.

(٤) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٤٠٤.

حرق المزارع وتخریب البساتین التي تقع خارج أسوار المدن^(١) وكذلك كان نصارى أسبانيا إذا أغاروا على البلاد الإسلامية لا يترددون في إحراق البساتین وإتلاف الزروع^(٢).

وما حدث للزراعة، حدث للتجارة، فقد استطاعت دولة المرابطين بعد أن نجحت في التوحيد بين أقاليم المغرب والأندلس أن تقرر الأمن والسكينة في ربوعه كما سبق أن ذكرنا^(٣)، ففي العصر المرابطي الأول قبل معركة أفليش^(٤) (١٠١ هـ / ١١٠٨ م)^(٥) استطاع

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٣٥، تحقيق إحسان عباس، سنة ١٩٧٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٨٠، ص ٨١، ص ٨٤ وما بعدها، ابن القطان: نظم الجيمان: ص ١٩٧، ص ٢٠٠، ابن أبي زرع: الأيس المطرب: ص ١٦٠، ص ١٦١، ص ١٦٢، ص ١٦٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٥٨٦، عن حملة ابن رذمير على غرناطة وإحراقه الزروع انظر ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٦ - ص ١٤، ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ ص ٧١ وما بعدها، أمبروسي هويش ميراندا: على بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان، منشورات الجامعة المغربية، كلية الآداب، العدد ٣ - ٤، ١٩٥٨ م - ١٩٥٩ م، ص ١٧٢.

(٣) كانت الأندلس في عهد ملوك الطوائف يقطعون السبل في البلاد الأندلسية، عن ذلك انظر عبد الله ابن بلقين: التبيان: ص ٩٥ وما بعدها.

(٤) «مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، وهي قاعدة كور شنتبريه، وهي... مربعة منحوتة مستوية الأطراف» انظر الحميري: الروض المعطار: ص ٢٨.

(٥) يذكر عز الدين موسى في كتابه النشاط الاقتصادي «أنه يمكن التمييز بين دورين في تاريخ المرابطين، انتهى الدور الأول في عصر المرابطين عقب معركة أفليش Ucles ٥٠١ هـ - ٥٠٢ هـ، (١١٠٨ - ١١٠٩ م) ثم تلاه دور آخر عجز فيه المرابطون عن حماية الزراعة واختل الأمن فعمجروا عن رد غارات نصارى أسبانيا، عز الدين موسى: المرجع السابق: ص ١٥٨، عن معركة أفليش انظر: ابن القطان: نظم الجيمان: ص ٥، ص ٦، ص ٧، ص ٨، ص ٩، ص ١٠، انظر نص الرسالة التي وجهها تميم بن يوسف إلى أخيه، انظر عن ذلك حسين مؤنس: الشجر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في أيدي النصاري سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م مع أربع وثائق جديدة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ديسمبر سنة ١٩٤٩ م ص ٩١ - ص ١٤٣ وهي الموقعة التي نشبت بين المرابطين والنصاري وانتهت بانتصار المرابطين على جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة ومصراع ابنه الأمير شانجة، عن ذلك انظر أيضا أمبرسيو هويش ميراندا «عن المعارك الكبرى في حرب الاسترداد المسيحية» =

المرابطون أن يحفظوا الأمن وأن يقرروا السكينة فسهرروا على حماية الطرق وتأمين مسالكها^(١) وضبط الثغور^(٢) وذلك بتقل الصراع إلى مناطق نصارى أسبانيا^(٣) وبناء القلاع والحصون والأسوار^(٤) حول المدن مثل المرية^(٥) وغرناطة^(٦)، وتشديد الرباطات والمحارس الساحلية في غرناطة وغيرها من المدن الساحلية سواء في بلاد المغرب أو الأندلس وذلك لحمايتها من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الأعداء^(٧)، وكانت هذه الرباطات مزودة بمنائر عرفت باسم الطلائع^(٨).

= حيث يخص معركة أفليش ببحث مفصل، وقد ترجم هذا البحث إلى العربية ونشر تحت عنوان «واقعة أفليش وم صرع الأمير شانجة» مجلة تطوان، العدد الثاني، سنة ١٩٥٧، ص ١١٥، ص ١٣٠، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥٩، ص ١٦٠، ص ١٦١، طبعة دار المنصور، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ص ١١٤، ص ١١٥، طبعة سنة ١٩٧١، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٠٠، طبعة أوبسالة ١٨٤٣ م، وطبعة دار المنصور، ص ١٦٧.

(٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق: ص ١٥٩، طبعة دار المنصور.

المراكشي: المعجب: ص ٢٢٦، طبعة ١٩٦٣.

(٣) ابن القطان: نظم الجمال: ص ١٤، محمود على مكى: «وثائق جديدة» ص ١٥٧، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٥٩ - ١٩٦٠، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٤ ص ٥٢، ص ٥٧، ص ٦٢، ص ٦٤.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق، ج ٤ ص ٧٣، ص ٧٤، ص ٧٥، ص ٧٦.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق: يذكر ابن عذارى ما نصه: وتولى النظر في أسوار المرية رجل منهم يعرف بابن العجمي، من أصحاب ابن ميمون، فأخذ بالحزم واستكثر بالسياسة والعزم، ولم يتفق شيئاً من المال إلا في موضعه، ولا استعان إلا بمن جد في نصحه، ورأى الناس ذلك فتساهلوا في الأذى وتواصلوا حمل الأعباء، فأكمل السور على واجبة من «التحصين والتحسين» ابن عذارى: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٦) ابن عذارى: المصدر السابق، نفس الصفحة (ص ٧٣، ص ٧٤).

(٧) ففي هذا يقول الصوفي الغرناطي: ابن أبي رمنين «رأيت أهل العلم يستحبون التكبير في العساكر والثغور والرباطات عند صلاة العشاء وصلاة الصبح تكبيراً عالياً ثلاث تكبيرات، ولم يزل ذلك من شأن الناس قديماً» انظر ابن أبي رمنين كتاب قدوى الغزاري، ورقة ٢٩، مخطوط رقم ٥٧٥، المكتبة الوطنية بمدريد.

فأمن المرابطون بأسطولهم البحري حركة النقل التجارية في البحر^(١) وألغى المرابطون جميع أنواع الضرائب التي فرضها ملوك الطوائف^(٢) من قبل واقتصروا على الزكاة والعشر^(٣)، ثم تبدل هذا الوضع تدريجياً بعد معركة أقلش (٥٠١هـ / ١١٠٨م) أي في الفترة الثانية من حكم المرابطين حينما تحول الجيش المرابطي في الأندلس من الهجوم إلى الدفاع، وبلغت إغارات نصارى أسبانيا مداها بقيام حملة ابن رذمير على غرناطة^(٤) وما تلا ذلك من اندلاع الثورة الموحدية^(٥) وضعف المرابطين في مواجهتها فانعدم

(١) عن قوة الأسطول المرابطي انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق (ط. د) ص ٥٥، ابن الكردوبس: تاريخ الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٧١ م، ص ١٢٣، ص ١٢٤، ونفس الصفحات طبعة ١٩٦٥، ١٩٦٦ م، ابن خلدون: العبر المقدمة: ص ٢٥٥، طبعة بيروت، الحميري: الروض المعطار: ص ١٩٧، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٠١، سيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٢٣٨ وما بعدها، بيروت، سنة ١٩٦٨،

Torres Balbas: Atarazanas Hispano Musulmans, "Al - Andalus", 1946, Vol. XI, Fasc. 1, P 184.

أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، ج ٢ ص ٢٣٧.
Aly Mohamed Fahamy: Muslim Sea - Power in the Eastern Mediterranean, P. 128

(٢) كان ملوك الطوائف يفرضون قبالات على كل ما يباع في الأسواق: ابن النفريلة ص ١٧٦، ص ١٧٧.

(٣) عبد الله بن بلقين: التبيان، ص ١١٩، ص ١٢٠، ص ٣٤٠، ص ٣٤١، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٠٨، سنة ١٩٤٩ م، ابن أبي زرع: الأنيب المطرب: ص ١٦٧، طبعة دار المنصور، السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ٥٤، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٠٣، ص ٤٠٤، ص ٤٠٨، عن الضرائب انظر النظم المالية: ص؟

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٦، ص ١١٤، مجهول: الحلل الموشية، ص ٩١، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤ ص ٦٩ وما بعدها، عن ضعف المرابطين أمام الخطر النصراني انظر ابن القطان: نظم الجمان، ص ١١١ وما بعدها، ابن أبي زرع: الأنيب المطرب، ص ١٨٧ وما بعدها، السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ٩٧، سيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ص ٧٤٠.

(٥) عن ظهور الموحدين وأثره على دولة المرابطين انظر المراكشي: المعجب: ص ٢٤٦، ص ٢٥٥، ص ٢٥٩، ابن تومرت: أعز ما يطلب: مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت مما أملاه أمير المؤمنين ابن عبد المؤمن على الجزائر، سنة ١٩٠٣ م ١٣٢١ هـ، ص ٢٥٨ - ص =

الأمّن^(١) على النفس والمال في البر والبحر، ولم يستطع الناس حماية مزرعاتهم^(٢)، كما كثرت حوادث قطع الطرق على المسافرين من التجار^(٣) وعجز الأسطول المرابطى عن حماية السواحل المغربية والأندلسية وأصبحت الموانئ الأندلسية عرضة لهجمات أساطيل المدن التي تحالفت مع نصارى أسبانيا، فضُرب مركز التجارة المرابطية البحرى الرئيسى فى المرية سنة ٥٤٢هـ^(٤)، يقول صاحب المعجب «وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم

= ٢٦٦، البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت، الرباط، ١٩٧١، ص ٣٥، مجهول: الحلل الموشية، ص ١١٠، ابن أبى رزق: الأئيس المطرب: ص ١٨٧ - ص ١٩١، طبعة دار المنصور، السلاوى: الاستقصا: ج ٢ ص ٦٦ وما بعدها، ص ٩٧، ص ٩٨، عنان: دولة الإسلام فى الأندلس: عصر المرابطين، ص ٢٧٣، عبد الله علام: الدعوة المغربية بالمغرب، القاهرة ١٩٧٨ نشر دار المعارف ص ١٨٠ ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٧، ص ٣٤٦.

(١) وما يدل على اختلال الأمن فى العصر الثانى من حكم المرابطين ما يذكره المراكشى فى كتابه المعجب حيث يقول «واحتلت حال أمير المؤمنين بعد الخمسمائة، اختلالاً شديداً فظهرت فى بلاده منائر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد... واستولى النساء على الأموال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشريه وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور» من هذا النص يتضح أنه كثرت حوادث قطع الطرق بسبب ظهور قطاع الطرق الذين هددوا أمن وسلامة التجار، وهو ما يذكره أيضا ابن عذارى فى البيان، عن ذلك انظر ابن عذارى: البيان ج ٤ ص ٩١، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة، أن ابن عبد الله الصقلى ويكنى أبا عبد الله دخل غرناطة وسلب فى طريقها، وأخذ الناس عنه وبها توفي سنة ثمان وخمسمائة بغرناطة، انظر ابن بشكوال: المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٠٥، عن ذلك أيضا انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، طبعة بروكسنال: ص ٢٤٩.

(٢) هويش ميراندا: على بن يوسف وأعماله فى الأندلس: مجلة تطوان، سنة ١٩٥٨، ١٩٥٩.

(٣) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت: ص ٧٣، طبعة دار المنصور، الرباط، ١٩٧١، ابن بشكوال: المصدر السابق: ج ٢ ص ٦٠٥، ابن عذارى: البيان: ج ٤ ص ٩١.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق: طبعة دورى، ص ١٩٨ - ص ٢٢٠، الحميرى: الروض المعطار: ص ١٨٤، المقرئ: فنج الطيب، ج ١ ص ١٦٣، ج ٣ ص ٢٢٠، ص ٥٧١، ج ٤ ص ٤٦١، تحقيق إحسان عباس، ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ قسم ٣ الموحدى، ص ٣٣، المراكشى: المعجب، ص ٢٧٩، ص ٢٨٠، طبعة سنة ١٩٦٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٠٧، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، سنة ١٩٧٠ - ١٩٧٢، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١ ص ٢٢٣، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٧، التوبرى: نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٠٩، ص ٣١٠ سيد عبد العزيز مالم، وأحد مختار العبادى: تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٢٤٩، أشباح: تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ج ١ ص ٢٣٤.

أيضاً من المرابطين، واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم، فندبوا إليها أبا عبد الله بن ميمون، ولم يكن منهم، وإنما هو من أهل مدينة دانية^(١)، فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجل منكم، ووظيفتي البحر وبه عرفت، فكل عدو جاءكم من جهته فأنا به، فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد يعرف بابن الرميحي^(٢)، فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر، فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيتهم وانتهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره^(٣).

ولما قامت الدولة الموحدية أولى الموحدون النشاط الاقتصادي عناية خاصة وحاولوا توفير الأمن والاستقرار لأهل البلاد فنقلوا الصراع كذلك إلى مناطق نصارى^(٤) أسبانيا وبذلوا جهوداً كبيرة في إقامة الحصون حماية «للبسائط»^(٥) وإرسال الجيوش حماية (١) مدينة بشرقى الأندلس «على البحر عامرة حسنة لها ربح ضرر عليها سور حصين... والسفن واردة إليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو» الحميري: المصدر السابق: ص ٧٦.

(٢) يكنى أبا يحيى، وكان أديباً ظريفاً طيب النفس، وبنو الرميحي سلالة من بني أمية ملوك الأندلس، ينتسبون إلى رمحة: قرية من أعمال قرطبة وكان يتولى المرية قبله عامل من قبل الموحدين اسمه ابن مخلوف، فخلع أهل المرية طاعة الموحدين وقتلوا عاملهم إذ ذاك وولوا عليها أبا يحيى بن الرميحي دخل النصارى المرية، وفعلوا بها ما فعلوا، فر ابن الرميحي إلى فاس، وعاش بها ضائعاً خاملاً يسكن في غرفة مفردة ويعيش من نسخ الكتب، انظر المراكشي: المعجب: ص ٢٧٩.

(٣) المراكشي: المصدر السابق: ص ٢٧٩ - ص ٢٨٠.

(٤) عن محاولات الموحدين نقل الصراع إلى مناطق أسبانيا النصرانية ونسف زروعهم انظر ابن أبي زرع: الأليس المطرب: طبعة أوبسالة ص ١٣٨، ص ١٤٠، ص ١٤٤، ص ١٥١، وطبعة دار المنصور، ص ٢٠٠، ص ٢٠١، ص ٢٠٢، ص ٢١٠، ص ٢١١، ص ٢١٢، وفي ذلك يذكر ابن أبي زرع «وفي سنة خمس وثمانين وخمسائة تحرك أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها، وهي أول غزواته للروم، فجاز إليها من قصر المجار إلى الجزيرة الخضراء وذلك يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسائة المذكورة، فارتحل عن الجزيرة الخضراء حتى نزل شنترين وشن الغارات على مدينة الأشبونة وأتاحتها، فقطع الثمار وقتل وسب وأضرم النيران في القرى وحرق الزرع وبالغ في النكاية» ابن أبي زرع: المصدر السابق: ص ٢١٨، المراكشي: المعجب، ص ٣٣١، النوبري: نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ٣٣٤، تحقيق حسين نصار.

(٥) ابن عذارى: البيان: ج ٣ القسم الموحدى، ص ١٠٣، تحقيق هويش ميراندا ومحمد إبراهيم الكتاني سلسلة معهد مولاي الحسن، سنة ١٩٦٠ م.

لغرناطة، يقول ابن صاحب الصلاة: «إن أبا سعيد وأبا عبد الله خرجوا من أشيلية بالعسكر الميمون إلى مدينة غرناطة لدفع المخاربيين الأشقياء عن جهاتها وحماية صيفيتها فعند خروجهم من قرطبة إلى جهاتها التقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك^(١) فكانت بينهم مدافعات عميمة، وكرات في معركة من الحرب عظيمة، ظهر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وسائر العسكر ومن صبرهم ودفاعهم وقراءهم ما لم يظهر مثله إلا في زمان الأبرار المجاهدين الأخير^(٢)».

ومع كل جهود الموحدين هذه في حماية الأندلس بما فيها إقليم غرناطة ظل نصارى أسبانيا يوجهون اعتداءات مستمرة إلى كل بلاد الأندلس^(٣)، ولذلك حرص الموحدون على عقد الصلح مع نصارى أسبانيا رغبة في تحسين النشاط الاقتصادي^(٤)، وتحقيق الأمن للسكان حتى يستطيعوا ممارسة أنشطتهم الاقتصادية المختلفة دون خوف من سلب أو نهب أو حرق لزروع ونسف لبساتين فازدهرت الزراعة في المناطق الجنوبية مثل غرناطة ومالقة والمرية^(٥)

(١) حصن لك يقع جنوب غرناطة. على مقربة منها، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٢٧٦، هامش رقم ١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق: ص ٢٧٦.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٥١٢ - ص ٥٢٢، طبعة سنة ١٩٦٤، ص ٣٩٥ - ص ٤٠٥ طبعة سنة ١٩٧٩، المراكشي: المعجب: ص ٣٢١، ص ٣٢٤، ص ٣٥٦، السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ١٣٢ - ص ١٣٦، ص ١٣٨ - ص ١٤٠، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤ القسم الموحدي، ص ١٠٠، ص ١٠٣، ص ١٠٧ - ص ١٠٨، ص ١١٠، ص ١١٣، ص ١١٨ - ص ١١٩، المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ٤٤٣، طبعة بيروت.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق: ص ٢٠٩ - ص ٢١١، ص ٢٧٤ - ص ٢٩٠.

(٥) عن الزراعة في غرناطة ومالقة والمرية وازدهارها في تلك الفترة انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٩٩، ص ٢٠٠، ص ٢٠٤، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ٢ ص ٩١، ص ١٤٨، ص ٤٣٢، ابن سعيد: الجغرافية، ص ١٤٠، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨، ص ١٢٠، ص ١٣٠، مجهول: الحلل الموشية، ص ٩٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٧، ص ٢١٨، الحميري: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٤، ص ٢٩، ص ٤٥، ص ١١١، ص ١١٢، ص ١٤٣، ص ١٩٢، المقرئ: المصدر السابق: ج ١ ص ١٤٩.

وأشبيلية^(١) وجبل طارق فاهتموا بالغراسة^(٢) وتسريب الماء وبناء الخزانات^(٣)، كما شجعوا المزارعين على استغلال الأرض^(٤)، كذلك اهتموا اهتماماً عظيماً بالأساطيل، فلقد وجه عبد المؤمن بن علي عتايته نحو إنشاء وتعمير المراسى ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والأندلسية، فاستطاع أن ينشئ أقوى أسطول في البحر المتوسط^(٥)، يقول ابن أبي رزق «ودخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وفيها أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاده وعزم على غزو بلاد الروم في البر والبحر فأنشأ منها أربعمائة قطعة، منها في سلا والمعمورة مائة وعشرون قطعة وفي مراسى سبتة وطنجة وبادمس ومراسى الربيف مائة قطعة، وفي مراسى وهران هُنَيْن وتونس مائة قطعة، وفي مراسى الأندلس ثمانين قطعة»^(٦).

(١) الإدريسي: المصدر السابق: ص ٦٠-٢، الحميري: المصدر السابق، ص ١٩، ص ٢٠، ص ١٠٢، ص ١٦٩، ابن الشباط: الاكتفاء، ص ١١٧، ابن سعيد: المغرب، ج ١ ص ١٩٩، ص ٣٠١.

(٢) يذكر ابن صاحب الصلاة أنهم (أي الموحدون) «جلبوا من أنواع الزيتون المختارة من الألوان تحواً من عشرة آلاف شجرة، غرست على نسق عام بعد عام» انظر ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٥٤، هامش رقم ١، طبعة سنة ١٩٧٩، يذكر النويري: صاحب كتاب نهاية الأرب مدى اهتمام الخلفاء الموحدين بالغراسة للمحافظة على المزروعات، يقول: «فلما كان في صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار (أي عبد المؤمن بن علي) يريد أفريقية ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقه والاتباع أمثالهم وبالغ في حفظ العساكر حتى كانوا يسرون بين الزروع فلا تُؤذى لهم سنبلة واحدة» النويري: نهاية الأرب: ج ٢٢ مخطوط مجلد ٢ ص ٩٤، المطبوع: ج ٢٤ ص ٣١١، (عن اهتمام الموحدين بالزراعة في بلاد المغرب والأندلس انظر ابن أبي رزق: الأئیس المطرب): ص ٢١٧ - ص ٢١٨، ص ٢٢٩.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، نفس الصفحة، الحميري: الروض المعطار، ص ٦٧، ص ١٢١ «اهتم الموحدون وخاصة الخليفة المنصور الموحدي بتوفير المياه اللازمة للرى».

Brelvi: Islam in Africa, P. 137.

(4) Julien: Histoire de l'Afrique, P. 122, Julien, Op. Cit. P. 124.

(٥) يذكر ابن صاحب الصلاة «أن الموحدين كانوا مضطرين للاتصال كل لحظة وخين لربط الصلة بين أفريقية والأندلس ونقل الثنات من الجند بين الفترة والأخرى» انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٥٤، السلاوي: الاستقصا: ج ٢ ص ١٢٨، ص ١٢٩.

(٦) ابن أبي رزق: الأئیس المطرب: ص ٢٠٠، ص ٢٠١، طبعة دار المنصور.

ويعطينا ابن خلدون وصفًا يدل على مدى القوة والكفاية التي كانت لأسطول الموحدين في تلك الفترة حيث يقول: «ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد»^(١).

هذا ولم تقتصر مهمة الأسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن على جهاد نصارى إسبانيا، بل أخذ على عاتقه أيضاً مهمة قمع حركة القرصنة التي كانت منتشرة بين المسيحيين والمسلمين على السواء^(٢)، يقول عبد العزيز بن عبد الله: إن سياسة الموحدين البحرية كانت تقوم على مبدأ احترام نوااميس التجارة الدولية وضمان السلام والطمأنينة في البحار^(٣)، فقد قام الخليفة أبو يوسف بشن غارة بحرية على حصن طبيرة^(٤)، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة «وفي هذه السنة (٥٦٣هـ) لازم الموحدون أعزهم الله حصن طبيرة بالحصار، ولللغادر الشائر فيها عبد الله بن عبيد الله بالضيقة عليها والإسار برأ ويحرراً وسكنوا في حصن قسطة^(٥) بعسكرهم المؤيد يضربون عليها نهاراً وليلاً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً منهم عليها في دفع ضررها، ورفع شرها الذى استشرى فيها، من أول عام ستة وأربعين وخمس مائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة باجتماع الفسقة في داخلها من أصناف الداييرين من أهل الترف والسرف بالفسق والعصيان وإذابة المسلمين

- (١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٥، أمارى (ميشيل) المكتبة العربية الصقلية، لبيك، ١٩٧٥ م.
 (٢) سيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادى: تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس: ص ٢٦٣، عن ذلك انظر أيضا: P. 123. *Ander Julien: Histoire de l'Afrique du Nord*.
 (٣) عبد العزيز بن عبد الله: البحرية المغربية والقرصنة - مجلة تطوان، العددان ٣ - ٤، سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩، عن ذلك أيضا P. 123. *Ander Julien: Historere de l'Afrique du Nord*.
 (٤) يقع هذا الحصن على شاطئ البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى لمدينة شلب، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٣٨٨، طبعة سنة ١٩٧٩، هامش رقم ١، الحميرى: الروض المعطار: ص ١٢٣ - ص ١٢٧ - ص ١٢٨.
 (٥) تقع فى غرب الأندلس فى الشمال الشرقى من طبيرة على مقربة منها على شاطئ المحيط الأطلسى، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٨٨، هامش ٣، الحميرى: الروض المعطار: ص ١٦٠، شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ص ٨٦، ديوان ابن دراج القسطلى: نشر محمود على مكى ص ٣٠، ص ٣١، ص ٣٢.

فى البر والبحر من كل البلدان، فكانت شجى على أهل العدو والأندلس فى نهب أموال المسافرى والتجار فى البرارى والبحار»^(١).

وإلى جانب إنشاء الأساطيل البحرية التى خدمت التجارة الملاحية، وجه الموحدون اهتمامهم إلى تنشيط التجارة الداخلية والخارجية وذلك بتشجيع التجار على المجرى إلى البلاد^(٢)، فأكد الخليفة عبد المؤمن بن على فى «رسالة العدل» على حماية التجار وتأمين طرق التجارة^(٣) وذلك بقتل من يخالف هذا الأمر^(٤) حيث يقول: «وأما ما ذكرتموه - أكرمكم الله - من أمر أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها فلتنظروا نظراً أكيداً فى قطعهم وردعهم»^(٥)...

وبعد ضم إقليم غرناطة إلى الدولة الموحدية عام ٥٥٧هـ^(٦) قام الخليفة عبد المؤمن ابن على بتنشيط حركة التجارة فى إقليم غرناطة، يقول ابن صاحب الصلاة: «واتصل فى أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه لمدينة غرناطة وقصبتها سناب الأندلس، فملا مخازنها فى القصة بها بالقمح والشعير... بما أبهت الناظرين، وقصر عن وصف الواصفين، وأوصل أمره العزيز ذلك كله إليها من العدو فى المراكب فى البحر إلى «حصن المنكب» وانتقل جميع ذلك من المنكب إلى غرناطة وتحصل فى قصبتها مخزوناً، فحيت بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول والنيل المبذول»^(٧) وقد سار خلفاؤه من بعده على نهجه^(٨) فى الاهتمام بالنشاط الاقتصادى وضبط الثغور وتأمين الطرق.

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٣٨٧، ص ٣٨٨.

(2) Budgett: The Moorish Empire, p. 54

(٣) ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٦٧.

(٤) مجهول: رسائل موحدية: الرسالة الخامسة والسادسة، ص ١٠، ص ١١، ص ١٢، ص ١٣.

(٥) مجهول: المصدر السابق: الرسالة السادسة، ص ١٣.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق: ص ١٩٣، ابن أبى زرع: الأئیس المطرب: ص ١٩٦.

(٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ١٩٦.

(٨) ابن أبى زرع: الأئیس المطرب: ص ٢٠٦، ص ٢١١، ص ٢١٧، ص ٢١٨، ص ٢٢٣، يذكر

الحميرى فى كتابه الروض المعطار أن الخليفة الناصر الموحدى قد نهض لإصلاح الطرق وضبط الثغور، انظر الحميرى: المصدر السابق: ص ٦٧، ابن أبى زرع: نفس المصدر: ص ٢٢٣، طبعة دار المنصور.

كذلك قطع الخليفة عبد المؤمن جميع المغارم والقبالات والمكوس التي فرضها المرابطون من قبل^(١)، يقول ابن القطان: «وقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغير ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً»^(٢).

وكان بعض الخلفاء يقومون بتنشيط حركة التجارة بمناسبة تولى الخلافة أو تجديد البيعة مثلما فعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٣م يقول ابن صاحب الصلاة: «وأمهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدواوين فزاد الانبساط، والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله، وزادت المخازن إثر ذلك وفوراً ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرباحة ودرت على الناس الخيرات دروراً واغبط العالم به وبيعته، وكثر المال في الأيدي من توالى سمحه وبركته، ... واتصل فضله على من ذكرته في جميع العدة والأندلس»^(٣).

وقد توفرت في العصرين المرابطي والموحدي سبل الإقامة للتجار وذلك بإنشاء الفنادق، وكانت هذه الفنادق تقوم كما يذكر سيد عبد العزيز سالم بمهمة مزدوجة فوظيفتها الأولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة، والثانية إيواء التزلاء من التجار الوافدين، وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر كلما ازداد عدد فنادقها^(٤)، فمدينة المرية كانت مزدهمة الفنادق لكثرة ورود التجار الأجانب^(٥) عليها فقد كان بها «ألف فندق إلا ثلاثين فندقاً»^(٦) كذلك ازدحمت مدينة مالقة بالفنادق الفخمة والحمامات الحسنة والأسواق الجامعة الكثيرة^(٧)، كذلك كانت الدولة الموحدية تساعد التجار وتعوضهم عن خسائرهم فيذكر ابن القطان «ومنها أنه فيها (يقصد الخليفة عبد المؤمن بن علي) أنه أحس بضعف

(١) ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٥٦.

(٢) ابن القطان: المصدر السابق: ص ١٥٦، عن القبالات والمكوس انظر الضرائب: ص ١٦٠ وما بعدها.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق: ص ٣٦٤.

(٤) سيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية: ص ١٦٩، ج ١ سنة ١٩٦٩ م، دار النهضة.

(٥) ياقوت: معجم البلدان: ج ٥ ص ١١٩، انظر: العذري: من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٦.

(٦) الحميري: الروض المعطار: ص ١٨٤.

(٧) الحميري: المصدر السابق: ص ١٨٧.

طلبة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضرة ومنهم أبو محمد المالقي^(١) وغيره فقال للأشياخ الموحدين أعزهم الله تعالى: هؤلاء طلبة غرباء والأقلام عليهم ظاهر، فنرى أنه ندفع إليهم مالا تقارضهم فيه، ويتجرون به ويردون السلف لنا، فقالوا نعم، فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد منهم، فاكتسبوا منها، وكانت أصل غناهم، ولم يأخذها منهم أبداً»^(٢).

كذلك اهتم الخلفاء الموحدون بالتجار والصناع وأمناء الأسواق فالخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن «كان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم»^(٣).

وهكذا تضافرت هذه العوامل مجتمعة على ازدهار الحياة الاقتصادية في إقليم غرناطة، وزيادة الإنتاج سواء في الزراعة أو الصناعة أو التجارة، ومن خلال دراسة الحياة الاقتصادية لإقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين سيتضح إلى أي مدى أثرت هذه العوامل على النشاط الاقتصادي لسكان الإقليم.

(١) هو أبو عبد الله بن عبد الرحمن المالقي، وهو من مالقة، إحدى مدن غرناطة وهو الذي ولي القضاء لعبد المؤمن بعد وفاة أبي محمد عبد الله بن جبل الوهراني، وظل على هذا المنصب طوال حكم عبد المؤمن ثم صدر من خلافة ابنه يوسف أبي يعقوب، انظر ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٣٧، هامش ٦.

(٢) ابن القطان: المصدر السابق: ص ١٣٧، ص ١٣٨.

(٣) المراكشي: المعجب: ص ٣٦٢، طبعة سنة ١٩٦٣.

الزراعة

كان إقليم غرناطة إقليمًا زراعيًا^(١) وكان سكانه يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على الزراعة^(٢)، وسوف أعالج في هذا الفصل الزراعة من خلال نظام الملكية العقارية للأرض الزراعية، واستخلاص نظام الزراعة سواء طرق الري أو زراعة الأرض وفلاحتها.

الملكية العقارية:

تأثرت الملكية العقارية في البلاد الأندلسية تأثرًا شديدًا عقب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وقيام فتن البربر وانقسام البلاد إلى ممالك مجزأة وطوائف متعددة^(٣)، يقول المراكشي: «وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية فإن أهلها تفرقوا فرقًا وتغلب في كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه وتقسما ألقاب الخلافة»^(٤).

ثم يضيف في موضع آخر «فهؤلاء (يقصد ملوك الطوائف) الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها، واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات»^(٥) كما يذكر ابن حزم «فاقتسم ملوك الطوائف الأراضي الزراعية فيما بينهم حتى لم يبق منها إلا القليل»^(٦).

وقد شهدت الأندلس ثورتين متعاقبتين على مدى نحو نصف قرن من الزمان هما ثورة

-
- (١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ٢٣٥، ليدن طبعة بريل سنة ١٩٠٩، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب: ج ٢ ص ١٠٢، ص ١٠٣، ابن غالب: فرحة الأنفس: ص ٢٨٣، العمري: مسالك الأبيصار (وصف أفريقية): ص ٣٤، ص ٣٥، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، ص ٩٩، ص ١٢٥، ص ١٣٣، اللوحة البدرية: ص ٢٢، الحميري: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٩، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٤٧ - ص ١٥٠، ص ١٧٥، ص ١٧٧.
- (٢) يذكر ابن الخطيب «وفي هذه القرى الجمل الضخمة من الرجال والفحول من الحيوانات الحارث لآثار الأرض وعلاج الفلاحة» انظر ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٢٥، ص ١٢٦.
- (٣) ابن الخطيب: نفس المصدر: ج ١ ص ١٤٠.
- (٤) المراكشي: المعجب: ص ١٢٣، طبعة ١٩٦٣.
- (٥) المراكشي: المصدر السابق: ص ١٤٦، انظر أيضا السلاوي الاستقصا: ج ٢ ص ٣٠، ص ٣١.
- (٦) ابن حزم: الرد على ابن النغريلة: ص ١٧٦.

لمرابطين وثورة الموحدين وانضوت الأندلس تحت حكم هاتين الدولتين^(١) فكان لا بد أن تؤثر هذه الأحداث على نظام تقسيم الأراضي وملكيته سواء الملكيات العامة أو الملكيات الخاصة.

الملكية العامة^(٢):

اتجه المرابطون منذ بداية حكمهم إلى جعل الدولة تمتلك الكثير من الأراضي سواء في البلاد المغربية أو الأندلسية، فقد حكم المرابطون على من ناوهم وامتنع عن الدخول في طاعتهم بالكفر فوجب قتالهم واعتبر مالهم غنيمة^(٣) وفيئاً، فاستولى المرابطون على سجلماسة ودرعة وطبقوا هذا المبدأ، يقول ابن أبي زرع: «فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التي أخذها في درعة فأخرج منه الخمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الباقي على المرابطين»^(٤).

(١) عن دخول الأندلس وخاصة إقليم غرناطة في حكم المرابطين انظر عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (التيبان): ص ١٠٣ - ص ١٠٧، المراكشي: المعجب: ص ١٤٧، طبعة سنة ١٩٦٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٧ تحقيق إحسان عباس، ص ١٢٢ وما بعدها، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ص ١٥٣، ص ١٥٤، ص ١٥٥، ص ١٥٦، طبعة دار المنصور، سنة ١٩٧٢، مجهول: الحلل المشوية: ص ٧١ - ص ٧٥، تحقيق عبد القادر زمامة، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٤٠، النوبري: نهاية الأرب: ج ٢٤ ص ٢٦٧ - ص ٢٧٠، وعن دخول الأندلس وخاصة غرناطة في حكم الدولة الموحدية انظر المراكشي: المصدر السابق: ص ٢٨٣، ص ٢٩٣، ص ٣٢١ - ص ٣٢٤، ابن أبي زرع: المصدر السابق: ص ١٨٨، ص ١٨٩، ص ١٩١، ص ١٩٣، ص ١٩٤، ص ١٩٥، ١٩٦، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٤١، النوبري: نهاية الأرب: ج ٢٤ ص ٣٠٠، ص ٣٠١، ص ٣٠٨، ص ٣٠٩، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: طبعة بغداد، سنة ١٩٧٩، ص ١٣٨ وما بعدها، ص ١٨٧، ص ١٨٨، ص ١٩٦ - ص ٢٠٩، السلاوي: الاستقصا: ج ٢ ص ١٠٤، ص ١٠٥، ص ١٠٦، ص ١٠٩، وانظر أيضا العمري: مسالك الأبيصار مخطوط رقم ٤٣٧٦، دار الكتب المصرية ج ١٦ قسم ٢، ٣٢٣، مراجع عقيلة الغنامي: قيام دولة الموحدين، رسالة دكتوراة.

(٢) عن الملكية العامة ونظمها في عصر المرابطين والموحدين وراى الفقهاء فيها انظر ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب: ص ١٩٩، القاهرة، مطبعة السعادة، سنة ١٣٥١ هـ، الجزنائي: زهرة الأس في بناء مدينة فاس: ص ٣، تلمسان، سنة ١٩٢٢، الونشريش (أبي العباس أحمد بن يحيى): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب: ١٢ جزءاً، مطبعة الشافعية، بدون تاريخ، فاس ج ٦ ص ٩٦ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٢٧٦ - ص ٢٧٨، فجر الأندلس: ص ٦١٤، إحسان عباس: الأدب الأندلسي في عصر سيادة قرطبة، ص ١٢، ص ١٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ص ٧٩، طبعة أوسالة، ١٨٤٦ م، ص ١٢٨، ص ١٢٩، طبعة دار المنصور.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ص ١٢٨، طبعة دار المنصور.

أما قبائل المصامدة، فقد أفرهم المرابطون على أراضيهم مكافأة لهم بسبب تحالفهم معهم أيام الفتح الأول^(١).

أما أرض زناتة^(٢) وبرغوطة^(٣) وغمارة فقد آلت إلى أملاك الدولة المرابطية^(٤)، وأصبح هذا المبدأ مطبقاً في كل حروب المرابطين^(٥).

ثم فتحت صفحة جديدة من المعارك في الأندلس أحرز فيها المرابطون انتصارات عظيمة على الفرنج وعلى رأس تلك المعارك معركة الزلاقة^(٦)، ثم بدأ المرابطون في توجيه

(١) ابن أبي رزع: المصدر السابق: طبعة دار المنصور، ص ١٢٦، ص ١٢٧ «وبعث بمال عظيم مما اجتمع عنده (يقصد عبد الله بن ياسين) من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها، واشتهر أمرهم في جميع بلاد الصحراء... وكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة» انظر المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٢) يذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى «واستفحل ملك وانودين، واستضاف سجلماسة، بعض أعمال المغرب، ومات، فقام بالأمر من بعده ابنه (مسعود بن وانودين) إلى أن خرج (عبد الله بن ياسين) شيخ المرابطين... ثم ملك سجلماسة... ودخلت في ملك المرابطين لأول أمرهم وانقرضت دولة بني خزرون منها» القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٦٨، ص ١٨٧، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٣ ص ٢٤٣، ص ٢٦٤، ابن خلدون: العبر: ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) ابن أبي رزع: المصدر السابق: ص ١٣٠، ص ١٣١، طبعة دار المنصور، ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٨٥.

(٤) ابن أبي رزع: المصدر السابق: ص ١٢٦، ص ١٢٧، ص ١٣٠، ص ١٣١.

J.F.P. Hopkins; Medieval Muslim: P. 29.

(٥) يذكر ابن أبي رزع عن استيلاء يوسف بن تاشفين على غرناطة حيث يقول «فلما وصل يوسف إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلقين وأغلق الأبواب في وجهه، فحاصره أمير المسلمين شهرين، فلما رآه تمدة بالحصار؟ عليه فبعث إليه يطلب الأمان فأمنه بعد إسلامه، فملك يوسف غرناطة وأحوارها وجميع ما كان بيد عبد الله بن بلقين من الأعمال والبلاد، وبعث بعد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخيه تميم صاحب مالقة إلى مراکش مع حريمهما وأولادهما، فأقاما بها وأجرى عليهما الاتفاق إلى أن ماتا بها» ابن أبي رزع: نفس المصدر: ص ١٥٤.

(٦) عن الزلاقة انظر ابن أبي دینار القيرواني: المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧، ص ١٠٨، ابن بسم: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: قسم ٢ مجلد ١ ص ٢٤١، المراكشي: المعجب: ص ١٩٣، طبعة ١٩٦٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٧ ص ١١٦، ص ١١٧، طبعة دار بيروت، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ١٥٤، ابن أبي رزع: المصدر السابق، ص ١٤٦ - ص ١٤٩، ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٨٦، مجهول: الحلل الموشية، ص ٤٣، ص ٥٠، ص ٥١، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: (الاكتفاء) ص ٩٥، الناصري، السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ٣٢، ص ٣٧، العيني، (أبو =

نشاطهم الحربي لضم الأندلس إلى دولة المرابطين والقضاء على ملوك الطوائف^(١)، فضم المرابطون أراضي ملوك الطوائف^(٢)، ومن ارتبط بهم من شخصيات ذات نفوذ^(٣)، فقام يوسف بن تاشفين بمصادرة أملاك مؤمل أحد خدام الدولة البادسية في غرناطة^(٤)، فاستعت بذلك ملكية الدولة بالإضافة لوراثة الدولة لمن لا وارث له^(٥)، ثم بدأت الدولة المرابطية بتوزيع أراضي كثيرة على الجند والفقهاء، فتنازلت عن مساحات كثيرة من الأراضي التي تملكها^(٦) ولكنها عادت وحاولت استرجاع أجزاء من الأراضي التي فقدتها، إذ حاول الأمير على بن يوسف زيادة أراضي الدولة بوسائل متعددة منها مصادرة أملاك الأمراء المرابطين المغضوب عليهم^(٧) أو العمال الخونة^(٨)، كذلك ضم أملاك أحباس الكنائس وبيع أرض المعاهدين الذين فروا إلى أرض العدو أو أجلوا إلى البلاد الغربية وهي أراضي واسعة^(٩)، وأكثرها في إقليم غرناطة^(١٠).

- = محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مخطوط: ج ١، دار الكتب المصرية رقم ١٥٤٨، ص ٢٥٩، شوقي أبو خليل: الزلافة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٩، ص ٤٢، محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢ م، ص ٢٨٤ - ص ٢٨٦، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٧٦ - ص ٢٨٩.
- (١) عبد الله بن بلقين: التبيان: ص ٢٠٩، ص ٢١٠، تحقيق ليفي بروفنسال، ابن أبي زرع: الانيس المطرب، ص ١٥٢، ص ١٥٣، ص ١٥٤، ص ١٥٥، المراكشي: المعجب، ص ١٩٦، ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٨٧، ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ٢٣٥، تحقيق ليفي بروفنسال، سنة ١٩٥٦.
- (٢) عبد الله بن بلقين: ص ١٤٧ وما بعدها، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٥٣، ص ١٥٤، ص ١٥٥، المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٠، ص ٢٠١ وما بعدها، المقرئ: نفع الطيب، ج ٤ ص ٢١٦، طبعة بيروت.
- (٣) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١١٧.
- (٤) ابن الخطيب: المصدر السابق: نفس الصفحة.
- (٥) الونشريشي (أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار المغرب: ج ٩ ص ١٦٥، ج ١٠ ص ١٥.
- (٦) مجهول: الحلل الموشية: ص ٨٢، المراكشي: المعجب: ص ٢٣٥ - ٢٣٧.
- (٧) ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ ص ٧٥، انظر مثال على ذلك الأمير ينالة المرابطي الوالي على غرناطة، من سنة ٥٢٠ هـ سنة ٥٢٢ هـ، الذي ظلم واستبد بالناس والعمال والفقهاء أيضا، عن ذلك انظر ابن عذارى: المصدر السابق: ج ٤ ص ٧٥.
- (٨) انظر محاسبة الأمير على بن يوسف لعامل الجبابة في غرناطة عيسى بن الوكيل واستصفاء أمواله، ابن عذارى: المصدر السابق: ج ٤ ص ٧٧، الحميري: الروض المعطار: ص ١٩٧.
- (٩) الونشريشي: المعيار المغرب: ج ٨ ص ٣٩ - ص ٤٥.
- (١٠) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٩ - ص ١٦٦، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩٠ - ص ٩١.

لكن معظم هذه الأراضى كانت ملكاً للفقهاء الذين حظوا بمنزلة رفيعة فى دولة المرابطين^(١)، وينزل المراكشى: «لم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته (يقصد على بن يوسف) فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم»^(٢).

وقد اتبع الموحدون سياسة مختلفة بالنسبة لتملك الدولة للأراضى الزراعية، فقد كفر ابن تومرت كل من لم يؤمن بأفكاره^(٣) «وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من أن المرابطين مجسمة، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار»^(٤) فأحل دمه وماله واسترقاق نسائه وأطفاله^(٥)، يقول المراكشى: «ولما كانت سنة ٥١٧هـ جهز (يقصد المهدي بن تومرت) جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل، مع من انضاف إليهم من أهل السوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إمارة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم»^(٦) ويتضح من النص السابق أن الموحدين كفروا الأمراء المرابطين والفقهاء المالكية المتعاونين معهم^(٧)، فوزع ابن تومرت أموال هؤلاء المخالفين أو المنكرين بعد تخميسها على الموحدين، يقول ابن القطان فى حرب الموحدين ضد

(١) المراكشى: المعجب، ص ٢٣٥.

(٢) المراكشى: المصدر السابق، ص ٢٣٥ - ص ٢٣٧ يتضح من النص السابق أن أكبر الملاك فى العصر المرابطى كانوا من الفقهاء ولهذا سيكونون أحرص من غيرهم على عدم المساس بالأموال الخاصة.

(٣) السلاوى: الاستقصا: ج ٢ ص ١٠٣، ابن أبى زرع: المصدر السابق: ص ١٧٣ - ص ١٧٥.

(٤) السلاوى: المصدر السابق: ج ٢ ص ١٠٣.

(٥) ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٧٨ - ١٧٩، المراكشى: المعجب، ص ٢٦٠، السلاوى: المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٤.

(٦) المراكشى: المصدر السابق: ص ٢٦٠.

(٧) الإدريسى: نزهة المشتاق (ط.د): ص ٦٨، ابن القطان: نظم الجمان، ص ٤٢، ص ٤٨، ص ٨٥، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٤ ص ٦٨.

المرابطين ومن معهم من المخالفين «فقتل منهم فى ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألفاً... وقاتل من ذلك القبيل كل من حضر فى ذلك اليوم بتينمل وسبى حريمهم وغنمت أموالهم فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحديين من أصحابه وأصطفى ديارها جوائز، جوائز لكل جائزة قبيلة»^(١) وسار الخليفة عبد المؤمن على نفس السياسة خاصة فى البلاد المغربية^(٢).

ويذكر عز الدين موسى أن بعض القبائل المغربية ثارت بسبب تخميس أموالها وأراضيها وهم مسلمون^(٣)، ففى عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م قامت ثورة ضد الدولة الموحدية الوليدة يتزعمها رجل يدعى الماسى، يقول ابن أبى زرع: «ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فيها خرج على أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على الماسى وتسمى بالهادى، واسمه محمد بن هود بن عبد الله، وكان قصاراً بمدينة سلا... فخرج على عبد المؤمن بعد أن حضر معه فتح مراکش... فقلب على بلاد تامسنا وأكثر بلاد المصامدة، فبايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت عبد المؤمن إلا مراکش»^(٤).

وأعقبت تلك الثورة ثورة دكالة وبرغواطة يساندهم الفقهاء، المالكية أمثال بنى غانية والقاضى عياض، يقول ابن أبى زرع «ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فيها ارتحل عبد المؤمن إلى سجلماسة فدخلها وأمن أهلها، ثم رجع إلى مراکش فأقام بها أياماً وخرج إلى غزو برغواطة فكانت بينه وبينهم حروب عظيمة هزم فيها عبد المؤمن، ثم كانت الكرة عليهم، فأجال فيهم السيف، ولم يبق منهم إلا من لم يبلغ الحلم، وفى خلال هذه (كذا) الأيام قام أهل سبتة على الموحديين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة، وكان قيامهم عليهم برأى قاضيهم عياض بن موسى (كذا) فقتلوا من بها من الموحديين وعمالهم وأحرقوهم بالنار وركب عياض البحر إلى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليا، فأرسل معه الصحراوى فدخلها وأقام بها أياماً، فلما سمع برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم كتبوا إلى الصحراوى وإلى سبتة يستنصرون به، فأتاهم فبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن وهزموه ثم كانت الكرة عليهم وهزمهم وقتلهم وسباهم، فهرب الصحراوى وراسل عبد

(١) ابن القطان: نظم الجمان: ص ٩٤.

(٢) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب: ص ١٨٦، ص ١٨٧.

(٣) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خلال القرن السادس ص ١٣٥.

(٤) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب: ص ١٩٠.

المؤمن يطلب منه الأمان، فأمنه وأتاه وبايعه... فلما رأوا (كذا) ذلك (كذا) أهل سبته سقط في أيديهم وندموا على صنعهم وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن... فعفا عنهم وعن القاضي عياض^(١).

وبعد هذه الثورات التي قامت في وجه الدولة الموحدية عدل الخليفة عبد المؤمن بن علي عن هذه السياسة وبدأ ينتهج سياسة توحيد القبائل في دولة واحدة، فأكد على احترام الملكية الخاصة وعدم التعرض لها لأنها مخالفة لأحكام الشرع^(٢) «وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقى الله تعالى ولا يخشاه، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاها، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفساه، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ويتشرون بالقتل بأعراض الناس أقيح الانتشار، يستحلون حرمت المسلمين من غير حلها، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها، ويصفون الشدة والغلظة بطرا ورياء في غير محلها، ويبتدعون، من وجوه المظالم ما تضعف شواهد الجبال عن حملها... فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتليسات ينشئونها ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ويتظنون إلى إهضام حق الله تعالى»^(٣).

فسمح لتلك القبائل الثائرة بالعودة إلى أراضيها وفلاحتها^(٤) «وأن من الرأي الذميم والسعي المنقوم، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها»^(٥).

أما في البلاد الأندلسية فقد سار الخلفاء الموحدون على النهج ذاته من توحيد القبائل الثائرة تحت راية الدولة الموحدية^(٦)، فيذكر البيهقي أن السيد أبا حفص الموحدى خرج

(١) ابن أبي ررع: المصدر السابق: ص ١٩٠، ص ١٩١.

(٢) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت، طبعة دار المنصور، ص ٥٦، سنة ١٩٧١، ص ١٠٦، طبعة ليفي يروفسال، ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ - قسم ٣ القسم الموحدى، تحقيق هوشى ميراند، ص ١٨، ص ٢٥، ص ٢٦.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٥٣، ص ١٥٤ - ص ١٥٧.

(٤) ابن القطان: المصدر السابق: ص ١٥٧.

(٥) ابن القطان: المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٦) مجهول: رسائل موحدية: ص ٤٤، ص ١٥٢.

لملاقاة الثائر ابن ملجان بوادي آش وبسطة من أعمال غرناطة فوحد له^(١)، واحتفظت هذه القبائل بأراضيها واعتبرت هذه الأراضي أرضاً خراجية يؤدي عنها الخراج للدولة^(٢).

يقول ابن أبي زرع «وفي هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد أفريقية والمغرب وكسرها من بلاد أفريقية من برقة إرلى بلاد نول من السوس الأقصا (كذا) بالفراسخ والأميال طويلاً وعرضاً فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرق والحزون، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب»^(٣).

أما الثوار الذين كانوا يخرجون على الدولة من وقت لآخر فقد تملك الموحدون أراضيهم تاديباً وعقاباً لهم^(٤) هذا فضلاً عما يرد من الأبواب المعتادة من استصفاء أموال المغضوب^(٥) عليهم وورثة الدولة لأملك من لا ورث له^(٦).

الإقطاع:

منذ أن اعتبر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الأندلس ثغراً أعطى العرب الوافدين على الأندلس إقطاعات واسعة، يقول ابن الخطيب: «ولما استقر ملك الإسلام بجزيرة

(١) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت: ص ٨٨، طبعة دار المنصور، انظر عن تأمين الموحدين لأهل غرناطة: ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٤ القسم الموحدى تحقيق هوشى ميراند، ص ٣٣، انظر أيضاً ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ١٩٥، وعن توحيد الموحدين للثائر ابن همشك بغرناطة انظر ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٤١٢ - ص ٤١٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٩٩، عن الخراج انظر النظام المالى: ص ١٥٨.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق: ص ١٩٨ - ص ١٩٩، السلاوى: الاستقصا، ج ٢ ص ١٢٤.

(٤) عن الثوار الخارجيين على الموحدين انظر التوبرى: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٠٩، ص ٣٢٢، ص ٣٢٣، ص ٣٢٥، ص ٣٢٨، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٧٥، ص ٣١٢، يذكر ابن صاحب الصلاة عن ما أخذه الموحدون من ابن مردنيش فى الأندلس «وأن غنائم بسطة إحدى قرى إقليم غرناطة غنم فيها الموحدون الكثير» انظر ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق ص ٢٨٤، وعن غدر ابن همشك وثورته فى غرناطة انظر المصدر السابق، ص ١٨٠ - ٢٠٩، المراكشى: المعجب، ص ٣١٨، ص ٣٢٤، ص ٣٢٨.

(٥) انظر أمثلة فى ذلك فى ابن عذارى: البيان: ج ٤ القسم الموحدى ص ٢٣، تطوان، ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر: ص ١٨٢، ص ١٩٥، ص ١٩٨.

(٦) الونشريشى (أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار المغرب: ج ٩ ص ١٦٥.

الأندلس، ورمى إلى قصبتها الفتح واشرب في عرصاتهما الدين، ونزلت قرطبة وسواها العرب، فتبوءوا الأوطان وعمروا البلدان^(١) كما يضيف أن أبا الخطار والى الأندلس أنزل جند دمشق كورة البيرة وجند الأردن كورة جيان وجند مصر كورة باجة وبعضهم بكورة تدمير: فهذه منازل العرب الشاميين، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة، وبقي العرب البلديون والبربر وشركاؤهم، فلما رأوا بلدانا شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتحولوا، إلا من قد نزل منهم... موضعاً رضياً^(٢).

فلما كان عهد المنصور بن أبي عامر (٣٦٦هـ - ٣٩٢هـ) أبطل هذا النظام ورد الإقطاعات وجعل الحكومة هي المشرفة عليها بعد أن انتزع هذه الأرض من أصحابها العسكريين^(٣) وفرض على الأرض الجباية وقدم عليها جباة يجبرونها فظلموا المزارعين مما حملهم على الهرب وترك الأرض^(٤)، يقول الطرطوشي: «فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد»^(٥) وسار ملوك الطوائف على هذا النظام^(٦) الإقطاعي، فلما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية عادوا إلى ما كان سائداً قبله من إقطاع الجند أرزاقهم^(٧)، يقول صاحب الحلل الموشية: «فمن ظهرت نجدته وشجاعته وإعانتة أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده»^(٨).

وكان الجند والفقهاء هم المنتفعون أساماً بهذه السياسة وحرم الحكام السابقون إلا عبد الله بن بلقين وأخوه تميم^(٩) وظهر أمر المرابطين بالمغرب واستفحل ملك يوسف بن

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٣.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٠٢، ص ١٠٣، عن إقطاع العرب إقطاعات في الأندلس انظر حسين مؤنس: فجر الأندلس: ص ٦١٨، ص ٦٢١.

(٣) «عندما نزع المنصور بن أبي عامر الأرض من العسكريين أعطاهم رواتب مشاهرة» عن ذلك انظر الطرطوشي: سراج الملوك: ص ١٢٣، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين: ص ٤٠٥.

(٤) الطرطوشي: المرجع السابق: ص ٢٠٩، حسن أحمد محمود: المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٥) الطرطوشي: نفس المصدر: ص ١٢٣.

(٦) عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (التيبان) ص ١٧.

(٧) الطرطوشي: المصدر السابق: نفس الصفحة، مجهول: الحلل الموشية: ص ٨٢، تحقيق عبد

القادر زمامة، ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ ص ٧٣.

(٨) مجهول: المصدر السابق: ص ٨٢.

(٩) ابن خلدون: العبر: ج ٦ ص ١٨٠، ١٨١.

تاشفين فولى من بعده «يقصد باديس» حافده عبد الله بن بلقين بن باديس، وتغلب على المظفر وعقد لأخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن جاز يوسف بن تاشفين إلى العدو أجازته المعروفة كما نذكره فى أخباره، ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فقبض على عبد الله بن بلقين واستصفى أمواله وذخيرته وألحق به أخاه تميما من مالقة واستصحبهما إلى العدو فأنزل عبد الله وتهيما بالسوس الأقصى وأقطع لهما إلى أن هلكوا فى أيامته^(١).

وفى العصر الموحدى استمر نظام الإقطاع ولكنه اتخذ أشكالا تختلف عنها فى عصر المرابطين، فقد لجأ الموحدون إلى منح الإقطاعات لمن يخشون فتته أو اتقاء شره فكانوا يقطعونه إقطاعا تسكينيا له وتجنبيا لثورته^(٢)، فكانوا يقطعون هؤلاء الثوار المستسلمين إقطاعات تكون عادة بعيدة عن مناطق نفوذهم لئلا تحدثهم نفوسهم بالثورة على الدولة مرة أخرى وهو ما اتبعه الموحدون مع الثائر ابن همشك^(٣)، إذ يذكر ابن الخطيب أن الموحدين أقطعوه «سأما بها خطر»^(٤).

كذلك أقطع الموحدون أنفسهم الإقطاعات الواسعة مثلما فعل الخليفة أبو يوسف يعقوب الموحدى مع أعمامه لما تملكوا عن بيعته ثم استجابوا، يذكر المراكشى «وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكأ عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن، بعدما ملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الأقطاع الواسعة»^(٥) كذلك أقطع الموحدون كل من أسرع فى مبايعتهم من

(١) ابن خلدون: المصدر السابق: ج ٦ ص ١٨٠ - ص ١٨١، «عن إقطاع يوسف بن تاشفين إقطاعا لعبد الله بن بلقين» انظر ابن أبى رزق: الأنيس المطرب: ص ١٥٤، طبعة دار المنصور، السلاوى: الاستقصا: ج ٢ ص ٤٨.

(٢) مثل الثائر ابن همشك الثائر بغرناطة، انظر ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٣٠٢.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٣٠٢، وكذا يسميه المراكشى صاحب المعجب «وقد صفا ما بينه وبين الموحدين فى آخر أمره، فأقطعوه بمكناسة أملاكاً ذات خطر، وأقام بها إلى أن مات» المعجب: ص ٢٨٠، طبعة ١٩٦٣، عن ابن همشك والتوصية له بالإقطاع انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ١٨١ - ص ١٩٧، ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٢٩٦ - ص ٣٠٣.

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٣٠٢ (يذكر ابن الخطيب أن هذا الإقطاع كان فى مكناسة) المصدر السابق: ص ٣٠٢، «السوام والسائمة أى الأبل الراعية» ابن الخطيب: نفس المصدر: ص ٣٠٢.

(٥) المراكشى: المعجب، ص ٣٤٠، ص ٣٤١، طبعة ١٩٦٣.

الأمرء والقبائل والأفراد، فقد أقطع الموحدون أهل شريش^(١) بالأندلس الإقطاعات وحررت أملاكهم وكانوا مقدمين عند الخليفة على سائر الوفود^(٢)، قال السلاوى «ولما أجازوا إلى الأندلس نزلوا بأبي الغمر بن غمرون، صاحب شريش، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس بلد شريش، خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل في طاعته، فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين، وحررت أملاكهم فلم تزل محررة سائر أيامهم»^(٣).

واتبعت الدولة الموحدية نظاماً آخر هو مشاركة الدولة للملاك، فيذكر عز الدين موسى «أن الموحدين بهذا النظام عادوا إلى نظام الرقطاء العامرى مستعملين اصطلاحاً آخر وهو الإسهام^(٤)، وعلى هذا يكون للدولة حصة من دخل الأرض»^(٥).

وكان لأراضى الدولة ديوان خاص مسئول عن إدارتها عرف في البلاد الأندلسية بديوان المستخلص^(٦).

وفى إمارة يوسف بن تاشفين يبدو أن مستخلص البلاد الأندلسية كلها كان فى ديوان واحد مركزه غرناطة^(٧).

(١) «من كور شدونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمس وعشرون ميلاً، وهى على مقربة من البحر، يوجد زرعها ويكثر ريعها» الحميرى: الروض المعطار: ص ١٠٢
 (٢) السلاوى: الاستقصا، ج ٢ ص ١٠٤.
 (٣) السلاوى: المصدر السابق: ج ٢ نفس الصفحة.
 (٤) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى، ص ١٤٧.
 (٥) لا تعطى المصادر معلومات وافية عن مقدار هذا الإسهام الذى يقطع للفرد الواحد، فأحياناً يوصف بالسعة أو الخطر أو الولاية الكبيرة أو القرى الكثيرة، أو الضيعة الواحدة، انظر ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٣٠٢، ابن القطان: نظم الجمال، ص ١٣٧، ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٦٢.

(٦) المستخلص هو الأراضى الزراعية والعقارات التى تخص بيت المال حيث تشير المصادر إلى مال الدولة كأنه مال الأمير المرابطى أو الخليفة الموحدى لأنه رمز للدولة، انظر ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١١٦، ص ١٢٦.

(٧) يذكر المؤرخ ابن سعيد أن أبا محمد عبد الرحمن بن مالك كان يدير المستخلص فى عهد يوسف ابن تاشفين فى غرناطة، انظر ابن سعيد: المغرب: ج ١ ص ١١٧، الفتح بن خاقان: قلائد العقيان: ص ١٧٠، الخريدة ج ١٢ ورقة ١٤٠.

وفى عهد ابنه على بن يوسف بن تاشفين تعددت الدواوين، فأنشئ في كل قاعدة أندلسية ديوان^(١).

وفى العصر الموحدى كان صاحب المستخلص يعرف باسم أمين الضياع^(٢) وهو المشرف على أموال الخليفة والمحافظ عليها، يذكر البيذق «وفى ذلك العام أخذ الخليفة فى سهمه ثمانمائة ناقة وجعل عليها ابن وامانون يرهاها»^(٣) ويبدو أن بعضهم كان مطلق اليد كابن هدية «من أهل الدين والفضل والامانة بالتكسير والأعمال السلطانية وولى المستخلص بغرناطة فثقب وأجاد النظر. ويأمر جلائل الأمور... وحمى المناصبين، ورفع المؤمن والكلف عنهم ووسع بسليف البذور عليهم... وخص أحباس جامع غرناطة بفضل مال كثير من غلقه»^(٤).

كذلك حظى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن سعيد بمكانة خاصة لدى الخليفة عبد المؤمن بن على حيث ولاءه مستخلص غرناطة وأشبيلية وسلا^(٥) «كان وزيراً جليلاً بعيد الصيت عالى الذكر رفيع الهممة كثير الأموال»^(٦).

الملكية الخاصة:

تعددت فى ذلك العصر سبل الملكية الخاصة، فإما أن تأتى الأملاك هبة من الدولة أو إقطاعاً^(٧) منها أو تأتى بطريق الإرث أو الشراء^(٨)، هذا وقد كثرت الإشارات إلى الأراضى

(١) كابن هدية الذى تولى المستخلص للأمير على بن يوسف فى غرناطة: ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٤٢٩، وابن زهر الذى تولى المستخلص فى أشبيلية: ابن عذارى: البيان، ج ٤ ص ٦٥.

(٢) البيذق: أخبار المهدي، ص ٧٨، طبعة دار المنصور.

(٣) البيذق: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٤٢٩، ص ٤٣٠.

(٥) ابن سعيد: المغرب، ج ٢ ص ١٦٢.

(٦) ابن سعيد: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٢، هامش رقم ١.

(٧) انظر ما سبق عن الهبات، انظر ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ج ٢ ص ٤٠٠ - ص ٤٠٧، دار التوفيق، سنة ١٩٨٣.

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٢٦، ابن خلدون: المقدمة: ج ١ ص ٣٦٧.

الموروثة في العصرين المرابطي والموحدي وذلك يدل على كثرة الأملاك الموروثة وازدياد خطة المواريث^(١).

وكانت الملكيات الخاصة في البلاد الأندلسية خاصة المناطق الزراعية كغرناطة وأشبيلية أكثر من الملكيات الخاصة في البلاد المغربية فكان بعض الملاك يمتلكون قرية أو اثنتين وقد أشار المؤرخ الغرناطي ابن الخطيب إلى حوالي ثلاثمائة قرية يمتلكها أفراد أو يشترك أكثر من شخص في امتلاك قرية واحدة^(٢).

وكان أكثر الملاك في عصر المرابطين وعصر الموحدين هم الفقهاء، وأهل العلم والمتصوفة^(٣)، فقد تحالف الفقهاء مع المرابطين ونالوا العظوة عندهم واحتلوا المراكز الكبرى فازدادت ثرواتهم^(٤) «ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طوال مدته، فعظم أمر الفقهاء... وانصرف وجه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم»^(٥).

وكان بنو أرسالية من أشهر أسر الفقهاء، وأكبر الملاك في إقليم غرناطة^(٦)، كذلك كان بنو سعيد أمراء قلعة يحصب^(٧) من أكبر الملاك، أما في مالقة فكان لبني حسون^(٨) وبني الحسن وهما من أسر الفقهاء أملاك واسعة أيضاً^(٩).

(١) عن الوراثة انظر الونثريشي: المعيار المغرب: ج ٦ ص ١٣٨ وما بعدها، ابن رشد: المصدر السابق: ج ٢ ص ٤١٦ - ص ٤٢٧، انظر أيضا ابن سعيد: المغرب: ج ٢ ص ٢٨٦.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٢٦، ص ١٢٧، ص ١٢٨.

(٣) التادلي (أبو يعقوب يوسف بن الزيات): التشوف إلى رجال التصوف: ص ١١١، ص ١٣٣ «كان بنو أرسالية من أشهر الأسر التي اشتغل أهلها بالعلم والفقهاء في إقليم غرناطة» ابن الأبار: التكملة: ج ٢ ص ٥٧٧، ابن الخطيب: أعمال الأعلام: طبعة ليفي بروفنسال ص ٢٥٥ وبنو حسون في مالقة، التكملة ج ١ ص ٤٢١، وبنو الحسن أيضا في مالقة، النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا: ص ١١٤، تحقيق ليفي بروفنسال القاهرة دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٨.

(٤) المراكشي: المعجب: ص ٢٣٥.

(٥) المراكشي: المصدر السابق: ص ٢٣٥.

(٦) ابن الأبار: القضاة: التكملة لكتاب الصلة: ج ٢ ص ٥٧٧، تحقيق كوديرا، مدريد، سنة ١٨٨٨ م ١٨٨٩ م، ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ج ٢ ص ٢٥٥، طبع وتحقيق ليفي بروفنسال.

(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب: ج ٢ ص ١٦٠ - ص ١٨١.

(٨) ابن الأبار: المصدر السابق: ج ١ ص ٤٢١.

(٩) أبو الحسن النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا: تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، سنة ١٩٤٨ م، ص ١١٤.

وهكذا كان فقهاء عصر المرابطين وعصر الموحيدين من كبار الملاك للأراضي الزراعية ولهذا فقد قوى نفوذهم في البلاد.

أما في فترة الانتقال من عصر المرابطين إلى عصر الموحيدين وما صاحب ذلك من ثورات واضطراب نجد أنه قد كثر استغلال أرض الآخرين ظلماً وتعدياً، فلجأ ضعفاء الناس إلى بيع أراضيهم بسعر زهيد، ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة «بأن العقرات والضياع ترخص في فترة الانتقال من دولة إلى أخرى حتى يستحوذ الفرد على أملاك الكثيرين» ويسمى ابن خلدون هذه الظاهرة «حوالة الأسواق»^(١).

وقد أثرت حوالة الأسواق هذه على الملكيات الخاصة، وكثرت هذه الظاهرة في فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحيدين، فتغلب القوى على الضعيف واستولى بعض الأفراد على أملاك الناس^(٢) وغدوا ملاكاً كباراً ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً^(٣) «وهذا معنى الحوالة فيها يصبح مالكها من أغنى أهل المصر وليس بسعيه واكتسابه إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك»^(٤) مثل ابن ملحان في وادي آش^(٥) وبسطه من أعمال غرناطة.

وكان النساء من بين الملاك أيضاً وملك بعضهن أراضي كثيرة إما بطريقة الوراثة^(٦) أو الشراء^(٧) أو الصداق^(٨).

وبذلك يتضح لنا أنه على الرغم من وجود الملكيات العامة للدولة وجدت إلى جانبها

(١) ابن خلدون: المقدمة: ج ١ ص ٣٦٧، انظر عن ذلك عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي ص ١٤٩.

(٢) المراكشي: المعجب: ص ٢٤١.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق: ج ١ ص ٣٦٧.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق: ج ١ ص ٣٦٧.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، طبعة ليفي بروفنسال، ص ٢٦٤، البيذق: أخبار المهدي: ص ٨٨، طبعة دار المنصور.

(٦) القاضي أبو الوليد بن رشد الحفيد ت ٥٩٥ هـ: بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ج ٢ ص ٤١٨، تحقيق عبد الحليم محمد عبد الحليم، دار التوفيق للطباعة، سنة ١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ.

(٧) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار المغرب: ج ٥ ص ٢١٣، ج ٦ ص ١٣٨.

(٨) القاضي أبو الوليد بن رشد الحفيد: المصدر السابق: ج ٢ ص ٣٠ - ص ٣٤، الونشريسي: المصدر السابق: ج ٣ ص ٢٩١ - ص ٢٩٧.

الملكيات الخاصة أيضاً والتي كثرت في هذين العصرين، فأسهمت تلك الملكييات في رفع مستوى الزراعة.

الرى والنظام الزراعى:

أوردت بعض المصادر بعض إشارات تدل على أن المرابطين اهتموا بمشاريع الرى فى البلاد الأندلسية والمغربية فأولوه عناية خاصة، فقد دأب ابن هدية صاحب المستخلص فى إقليم غرناطة على غرس الأشجار فى مناطق المياه لتخفيف تبخرها^(١)، وما أن استقر الأمر للموحدين حتى شرعوا فى إكمال ما بدأه المرابطون فى ذلك المجال محاولين الاستفادة من تجارب العهد الرومانى بالكشف عن آثار مشاريع الرى القديمة لتجديدها^(٢) للاستفادة من مياه الأنهار والعيون وجرها إلى البساتين بوسائل متعددة، منها تفريع الأنهار إلى جداول وشق الترع، وتتجلى جهودهم هذه فى إقليم غرناطة^(٣).

وفى مالقة استعملوا طريقة الرى بالأحواض^(٤)، على نسق ما كان يتبعه المصريون فى الرى، وكانت أكثر وسائل الرى انتشاراً هى الروافع من السواقي أو النواعير التى تديرها الدواب التى غالباً ما تكون من الثيران^(٥)، وأفادت تلك الوسائل فى زراعة ضفاف الأنهار

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٤٢٧، ص ٤٢٨.

(٢) كانت المناطق التى تسودها الحضارة الرومانية قديماً قد تقدمت فى وسائل الرى أكثر من غيرها، فتركت آثارها على سكان تلك المناطق، فظلت المياه تجلب إلى الهضاب حول غرناطة لرى تلك المناطق، انظر ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١١٧ - ص ١٢٠.

(٣) شكلت جداول الأنهار حول غرناطة دفاعاً طبيعياً عن المدينة من ابن همشك فى سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م وكيف حالت الأنهار دون ذلك: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ١٨٨، ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٤ القسم المحدى تحقيق هوش ميراند ص ٥١، ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٣٠١، عن ذلك انظر أيضاً ابن الخطيب ج ١ ص ٩٦، المقرئ: نفع الطيب: ج ٣ ص ٢٦٧، ج ٤ ص ٢٨٩، طبعة دار صادر بيروت، القلقشندى: صحح الاعشى: ج ٥ ص ٢١٥، العمرى: مسالك الأبصار (وصف أفريقيا): ص ٣٥، ص ٣٦، الحميرى: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٤.

(٤) ابن سعيد: المغرب: ج ١ ص ١٢٥.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٢٥ «وفى هذه القرى الجمل الضخمة من الرجال، والفحول من الحيوان الحارث» انظر المصدر السابق: نفس الصفحة.

والبساتط قرب العيون فى إقليم غرناطة مثل نهر شنيل^(١) وحدره فى غرناطة^(٢) ونهر وادى آش^(٣) ووادى بجانة الذى يسقى بساتين المرية^(٤) ووادى برجة قرب المرية^(٥) أيضاً، وإلى جانب جهود المرابطين والموحدين لتوفير مياه الرى، ظهرت جهود فردية يبذلها أصحاب الأراضى الزراعية أنفسهم كما فعل ابن ملحان فى وادى آش^(٦).

واعتمد أهل إقليم غرناطة على الأمطار أيضاً فى رى مزروعاتهم خاصة فى المناطق الجبلية حول المدينة^(٧)، فكانوا يحرصون على الاحتفاظ بمياه الأمطار وتخزينها فى صهاريج^(٨) ابتداء من شهر ديسمبر^(٩) واستعمالها وقت الحاجة، خاصة فى فترة الجفاف

(١) ابن سعيد: المغرب: ج ٢ ص ١٠٢، ص ١٠٣، ابن سعيد: كتاب الجغرافية، ص ١٦٧، تحقيق إسماعيل العرب الجزائر سنة ١٩٨٢، ابن الخطيب: المصدر السابق، ج ١ ص ١١٨، العمرى: مسالك الأبصار (وصف أفريقية): ص ٣٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٥، الحميرى: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ١١٢.

(٢) العمرى: المصدر السابق: ص ٣٧، القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥ ص ٢١٥، الحميرى: الروض المعطار، ص ٢٣، ص ٢٤، ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص ١٩٠، هامش رقم ٤. (٣) الإدريسى: نزهة المشتاق (ط.د) ص ٢٠٢، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢٢١، ابن الخطيب: اللحة البدرية ص ٢٩، الحميرى: الروض المعطار: ص ١٩٢. (٤) الحميرى: المصدر السابق: ص ١٨٤، «ووادى بجانة يعم بالسقى بساتين المرية» المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) ابن سعيد: ج ٢ ص ٢٢٨، المقرئ: النفع الطيب: ج ١ ص ١٤٣، طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٠ طبعة سنة ١٩٦٨ م.

(٦) ابن الخطيب: أعمال الاعلام: طبعة ليفى بروفنسال: ص ٢٦٤.

(٧) يذكر ابن الخطيب أن هذه الجبال تتراكم عليها الثلوج شتاء وفى الصيف عندما تسطع الشمس تذوب هذه الثلوج وتنساب من الجبال حوالى ستة وثلاثين جدول ونهر صغير تسقى الأرض بها» انظر ابن الخطيب: نفس المصدر: ج ١ ص ٩٦، انظر ابن سعيد: الجغرافية: ص ١٦٧، الحميرى: الروض المعطار: ص ١١٢.

(٨) عن احتفاظ أهل غرناطة بمياه الأنهار فى صهاريج انظر المقرئ: نفع الطيب: ج ٣ ص ٤٩٧، طبعة دار صادر بيروت، العمرى: مسالك الأبصار (وصف أفريقية): ص ٣٩، «الصهرج بمعنى البركة» انظر القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ١٥٦، ويسمونها المغاربة المواجل: العمرى: المصدر السابق: ص ٦.

(٩) عريب بن سعد القرطبي: تقويم قرطبة: ص ١٨٥، طبعة دوزى، ليدن بريل، المطبعة الجديدة، سنة ١٩٦١ م.

وقلة الأمطار، كذلك قام أهل غرناطة ببناء عدة قناطر على نهر شنيل وحفرة لنفس الغرض، ومن أهم هذه القناطر قنطرة ابن رشيقي وقنطرة القاضي^(١) وقنطرة حمام جاشي والقنطرة الجديدة وقنطرة العود وقنطرة شنيل^(٢)، وحفروا الآبار وفرعوا النهيرات جداول^(٣) لسقى مزرعاتهم.

طرق الزراعة:

كان العمل الزراعي في إقليم غرناطة شأنه شأن باقي أقاليم الأندلس يقوم على الدورة الزراعية الثلاثية، فكانت الأرض بين بور وقلب ومعمور، فالبور لا تصلح إلا بالقلب والتزليل^(٤)، أما القلب أو التقلب فهو حرث الأرض مرتين إلى أربع مرات حسب نوع الأرض ونوع الزرع أو الغرس، وتقلب الأرض هذا يبدأ عادة في شهر يناير ويستمر إلى يونيو لتترك الأرض لحرارة الشمس لأن بعض المحاصيل لا توجد إلا في أرض التقلب كالقمح والعدس^(٥)، ولقد كان الغرناطيون كغيرهم من أهل الأندلس على دراية بطرق تجهيز الأرض قبل زراعتها، فكانت الأرض تحرث بواسطة الثور^(٦) «حرث زراعة»^(٧) ويتم تعديل الأرض الصغيرة بالمرجقيل (ميزان الماء)^(٨) أما الكبيرة فيتم تعديلها بالجاروف الذي تجره البقرة^(٩).

وكان إذا تم تعديل الأرض نخططت للغرس خطوطاً مستقيمة مقابلة للريح من كل جهة حيث تباعد الغرومات والأحواض حسب اختلاف أنواع الثمار^(١٠).

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ١٨٥، هامش رقم ١،

Huici Mirinda: Historia, P. 200 - 201.

(٢) العمري: وصف إفريقية: ص ٣٧، ص ٣٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١١٩.

(٤) ابن بصال: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال: كتاب الفلاحة: تحقيق بيكيروسا ومحمد عزيمان، تطوان، منشورات معهد مولاي الحسن، سنة ١٩٥٥ م، ص ٥٧.

(٥) ابن بصال: المصدر السابق: ص ٥٦، ص ٥٧.

(٦) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٢٥.

(٧) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار: ج ٦ ص ٤١، ج ٨ ص ١٠٤.

(٨) ابن بصال: المصدر السابق: ص ٢٣، Dozy: Supplement 11, P. 579.

(٩) ابن بصال: المصدر السابق: ص ٥٥.

(١٠) ابن بصال: المصدر السابق: ص ٥٦، ص ٦٠، ص ٦٢، ص ٦٧.

هذا واهتم فلاحو إقليم غرناطة اهتمامًا خاصًا بالتزليل فكانوا يستخدمون زبل الخيل والبغال والحمير والمخلفات الآدمية والغنم والحمام ورماد الحمامات ثم المولد من الحشيش والتراب^(١)، وكانوا يعرفون ما يوافق كل تربة من هذه الأنواع وهذه الأسمدة.

وكان أهل غرناطة على علم بطبائع الثمار وغراستها وزمن غرس كل نوع^(٢) من أنواع الثمار، وما يروى بالأنهار أو العيون أو مياه الأمطار أو الآبار^(٣) وكانوا أحيانًا يزرعون ثمارًا في غير أوقاتها كقصب السكر واللوز اللذان زرعا في فحوص البيرة^(٤) مع أنهما لا يزرعان في الأندلس إلا في المناطق الساحلية^(٥)، كذلك كانوا يقومون بزرع الياسمين والموز والخضر في غير أوقاتها ولهذا كانوا يغطونها حتى لا يضر الجليد بها^(٦)، كذلك قام أهل غرناطة بزراعة الزعفران - الذي اشتهرت به باغة^(٧) من أعمال غرناطة - بطريقة البستنة أي زراعته في بساتين على الرغم من أن هذا النبات لا ينمو إلا في الصحراء^(٨).

ويبين ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة في فصل من كتابه طريقة تطعيم النبات^(٩)، وكذلك طرق زراعة الحبوب مثل الحمص وكيفية إعداد الأرض لذلك وعدد مرات سقاية الأحواض^(١٠) وزراعة الفول وأنسب الأوقات لذلك وأحسن تربة لإنتاج محصول وافر^(١١)، وزراعة الأرز الذي لا يؤكل إلا بعد تقشير^(١٢)، كما عرف أهل غرناطة الوقت المناسب

(١) ابن بصال: الفلاحة، ص ٤٩.

(٢) ابن بصال: نفس المصدر: ص ٩١.

(٣) ابن بصال: المصدر السابق، ص ٣٩، ص ٤٠، ص ٤١.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، ابن الخطيب: اللوحة البدرية: ص ٢٢، الحميري:

الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٤، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٨.

(٥) مثل المنكب وهي تابعة لإقليم غرناطة، العمري: وصف أفريقية، ص ٤٧، القلقشندى: المصدر

السابق، ج ٥ ص ٢١٨، انظر المقرئ، ج ٣ ص ٢١٩، طبعة دار صادر.

(٦) عريب بن سعد: تقويم قرطبة، ص ١٧٣.

(٧) المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٤٩، طبعة دار صادر، بيروت، وص ١٤٢ طبعة سنة ١٩٤٩.

(٨) ابن بصال: المصدر السابق: ص ١١٧.

(٩) ابن بصال: نفس المصدر: ص ١٠٥ - ١٠٨.

(١٠) ابن بصال: نفس المصدر: ص ١٠٩.

(١١) ابن بصال: الفلاحة، ص ١١٠، ص ١١١.

(١٢) ابن بصال: المصدر السابق، ص ١١٢.

لزراعة كل نوع^(١) من أنواع الثمار، فكان شهر يناير ميعاداً لغرس الكروم والزيتون والرمان^(٢) وكذلك التفاح واللوز والأجاص^(٣)، أما الفستق فكان يزرع في شهر فبراير^(٤) وفي نفس الشهر يتم استمرار غرس ثمار التفاح^(٥)، أما شهر مارس فكان ميعاداً لزراعة وغرس قصب السكر^(٦) وربما القمح والشعير^(٧)، وفي شهر مارس أيضاً كان يتوالد دود الحرير^(٨)، أما شهر إبريل فكان يجمع فيه بعض الأزهار مثل البنفسج^(٩) ويغرس فيه الياسمين^(١٠)، كما يتم فيه أيضاً زراعة اللوبيا والأرز على طريقة البستنة^(١١)، أما شهر مايو فكان يتم فيه زراعة الأرز والزعفران بستانياً^(١٢)، كذلك كان هذا الشهر ميعاداً لعمل عسل النحل^(١٣)، ويجمع فيه الحرير أيضاً^(١٤)، أما النصف الأخير من شهر يونيو فيحصد فيه القمح^(١٥).

- (١) ابن بصال: نفس المصدر، ص ٩١.
- (٢) ابن سعيد القرطبي: تقويم قرطبة، ص ٢٩، ص ٣٧، ابن بصال: نفس المصدر، ص ٦٢.
- (٣) ابن بصال: نفس المصدر، ص ٦٤، ص ٦٧، ص ٧١.
- (٤) ابن بصال: نفس المصدر، ٨٣.
- (٥) ابن بصال: نفس المصدر، ص ٦١.
- (٦) ابن بصال: نفس المصدر، ١١٤، ابن سعيد القرطبي: تقويم قرطبة، ص ٦٣، ابن البناء (أبو العباس): رسالة في الأنواء، نشر باعتناء ب. ج. رنو باريز لاروز، ص ٧.
- (٧) ابن البناء: المصدر السابق: ص ٧.
- (٨) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر: ص ٦٣، ابن العوام الأشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٣٤٩ باعتناء بانكوري، مدريد، ١٨٠٢ م.
- (٩) ابن سعيد القرطبي: تقويم قرطبة، ص ٧٦، ابن العوام: الفلاحة، ج ٢ ص ٤٤.
- (١٠) ابن سعيد: نفس المصدر: ص ٧٧، ابن البناء: نفس المصدر، ص ٨.
- (١١) المصدران السابقان: نفس الصفحات.
- (١٢) ابن بصال: الفلاحة: ص ١١٧، ابن البناء: نفس المصدر، ص ١٠.
- (١٣) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر، ص ٩٠، ابن البناء: المصدر السابق: ص ١٠.
- (١٤) ابن سعيد: تقويم قرطبة: ص ٩١.
- (١٥) ابن سعيد: تقويم قرطبة، ص ٩١، «كان يكثر في إقليم غرناطة وخاصة مدينة غرناطة نفسها» ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٩.

وجمع الأعشاب (التريقات)^(١) التي اشتهرت بكثرتها في إقليم غرناطة^(٢)، كما يبدأ أيضاً في هذا الشهر ظهور بواكير تين السواحل^(٣) وبواكير العنب^(٤)، كما يستمر في شهر يوليو حصاد وجمع القمح^(٥) ونضج العنب^(٦) وتزييب التين في السهل^(٧) وكذلك جمع التفاح والكمثرى^(٨)، وفي شهر أغسطس يحصد الأرز^(٩) وتحترث أرض الكروم^(١٠) وتجمع بواكير التمر^(١١)، كما يبدأ في هذا الشهر نضوج^(١٢) الرمان والخوخ والكمثرى، أما شهر سبتمبر فيحصد فيه قصب السكر^(١٣)، ويجرى قطف الخوخ^(١٤) وجمع اللوز.

- (١) ابن سعيد: نفس المصدر، ص ١٠١، «التريقات نوع من الأعشاب التي تنمو في جبل شليل ويستعمل في صناعة الأدوية» ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ٩٨، والترياق: دواء مركب يدفع السموم والترياق أيضاً الخمر لأنها تذهب بالهيم، انظر سعيد الخوري الشرتوني: أقراب المورد في فصح العربية والشوارد المطبعة اليسوعية لبنان ١٨٨٩، ص ٧٦، باب التاء والراء.
- (٢) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨.
- (٣) ابن سعيد القرطبي: تقويم قرطبة، ص ١٠٤، «الذي ينمو في مالقة إحدى مدن إقليم غرناطة» الإدريسي: نزهة المشتاق، طبعة (د) ص ٢٠٠، ص ٢٠٤، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص ١٤٠، ابن سعيد: المغرب، ج ١ ص ٤٢٢، ص ٤٣٢، المقرئ: نفع الطيب، ج ٣ ص ٢١٩، طبعة بيروت، تحقيق إحسان عباس، ج ١ ص ١٤٤، طبعة سنة ١٩٤٩.
- (٤) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر: ص ١٠٤، عن عنب مالقة انظر المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٥٢، طبعة دار صادر، بيروت، ج ١ ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٩، المقرئ: أزهار الرياض في أختار عياض، ج ١ ص ١٧٨.
- (٥) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر، ص ١٠٣ ص ١٨٨، ابن البناء: رسالة في الأنواء، ص ١٣.
- (٦) ابن سعيد القرطبي: المصدر السابق، ص ١١٨.
- (٧) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر: ص ١١٩.
- (٨) المصدر السابق: نفس الصفحة، ابن البناء: نفس المصدر، ص ١٢، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٢٠.
- (٩) ابن البناء: نفس المصدر، ص ١٣.
- (١٠) ابن بصال: الفلاحة، ص ٥٩.
- (١١) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر: ص ١٢٣.
- (١٢) ابن سعيد: المصدر السابق: ص ١٣٢، ص ١٣٣.
- (١٣) ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٤٥، «كانت مدينة المتكب أكثر مدن إقليم غرناطة إنتاجاً لقصب السكر» العمري (وصف أفريقية) ص ٤٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٨، كذلك مدينة شلوبينية، الحميري: الروض المعطار: ص ١١١.
- (١٤) ابن بصال: المصدر السابق: ص ١٨٨، ص ١٩٩.

والقسطل^(١) وزراعة الجوز واللوز وغرس التين^(٢) وفي شهر أكتوبر يستمر الناس في زراعة وغرس الزيتون والجوز واللوز والخوخ والتين والآجاص^(٣)، كما يستمر الحرث في المناطق الجبلية والسهلية استعداداً للزراعة^(٤) وفي شهر نوفمبر تقلب أرض الزرع^(٥) استعداداً لغرس الثمار وفي هذا الشهر يتم جمع وحصاد قصب السكر^(٦)، كما يجمع في هذا الشهر الزعفران^(٧) وتبدأ ظهور ثمار الترجس في البساتين والجبال^(٨).

وهكذا نستطيع القول بأن العمل الزراعي كان يستغرق وقت المزارعين طوال العام لأنه عمل دائم مستمر وكان لذلك أثره على أوضاع البلاد الاقتصادية وعلى الإنتاج الزراعي.

وإلى جانب العمل الزراعي من حرث وزرع وغرس وسقاية كان القطف أو الحصاد ويسميه الأندلسيون العصير^(٩).

وكان تخزين الطعام أمراً ضرورياً تحسباً لما يمكن أن يحدث من الفتن والمجاعات والحروب إلى جانب حب الناس في أكل أنواع الطعام والفاكهة في غير موسمها، فكان المخزن أو المظمورة جزء أساسى في بيت المزارع أو المزرعة^(١٠) كذلك كان أهل غرناطة

(١) ابن بصال: المصدر السابق: ص ١١٨، ص ١٩٩، وهى أى غرناطة كثيرة الثمار ملتفة الأشجار أكثرها أدواح خوخ» ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨.

(٢) ابن بصال: المصدر السابق: ص ٧١، ص ٧٢، ابن البناء: رسالة فى الأنواء: ص ١٥.

(٣) ابن بصال: نفس المصدر، ص ٥٩، ص ٦٠، ص ٦١، ص ٦٧، ص ٧٠، «وسائر الفواكه، من اللوز والآجاص والكمثرى، محدقة» ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٢٠.

(٤) ابن بصال: نفس المصدر، ص ٧١.

(٥) ابن سعيد القرطبي: تقويم قرطبة، ص ١٧٣.

(٦) ابن سعيد القرطبي: نفس المصدر، ص ١٧٣.

(٧) ابن سعيد القرطبي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٨) المصدر السابق: ص ١٨٦، ابن البناء، نفس المصدر، ص ١٧.

(٩) أبو يحيى الزجاجال: أمثال العوام، ج ١ ص ٢١٧، تحقيق محمد بن شريفة فاس، سنة ١٩٧١، وهى أيام أعياد عند الفلاحين، انظر الأعياد فى باب الحياة الاجتماعية ص ١٠.

(١٠) الإدريسي: نزهة المشتاق (ط٠د٠): ص ٩٦.

على علم بطرائق حفظ الثمار مثل الجوز واللوز والقسطل والرمان والتفاح والزبيب والتين والعنب^(١)، فتؤكل في غير موسمها^(٢)، فكانوا يحفرون حفراً تحت الأرض وتفرش أرضيتها بالرمل وتوضع فيها هذه الثمار ثم تغطى بالرمل^(٣).

كذلك كان أهل غرناطة كغيرهم من أهل الأندلس على علم بزراعة الزهور^(٤) وحمائيتها، وأشار ابن بصال في كتابه إلى طريقة زراعة الرياحين ذوات الزهور وسائر أنواعها^(٥)، وبدأ بالورد وبين طريقة جعله يزهر مرتين في العام في فصل الربيع وفصل الخريف وذلك بتركه دون سقى أيام الصيف فإذا دخل شهر أغسطس عادوا إلى سقيه بالماء فيزهر أزهاراً كثيرة في الخريف^(٦).

وقد اهتم أهل غرناطة بصفة خاصة بتحديد أرض البساتين وتشبيد الصرائم^(٧)، حتى

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٣٧.

(٢) «وفواكههم اليابسة عامة العام، متعددة، يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفد، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله» ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٣٧، ابن بصال: الفلاحة: ص ١٨٠.

(٣) ابن بصال: نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن بصال: نفس المصدر: ص ١٨١، «ففيها الدور العالية والمباني القصبية والرياحين النضيرة» ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٢١.

(٥) المصدر السابق: ص ١٧٢ (أوضح ابن بصال في هذا الفصل جميع طرق زراعة الأزهار ومعالجتها) انظر نفس المصدر: ص ١٦٢ - ص ١٧٣ وما بعدها.

(٦) ابن بصال: المصدر السابق: ص ١٧٣، يتحدث «ابن الخطيب في كتابه الإحاطة عن كثرة البساتين بغرناطة فهو يقول «وتعددت الجنات بها والبساتين» ابن الخطيب: نفس المصدر: ج ١ ص ٩٦ عن البساتين في غرناطة انظر المصدر السابق ص ٩٦، ص ١١٥، ص ١٢١، يذكر المقرئ في حديثه عن نارجة التابعة لمالقة وهي من أعمال غرناطة «وهي قرية كبيرة تضاهي المدن، قد أهدقت بها البساتين» المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٦٦.

(٧) والصرائم كلمة بربرية وتعني الحواجز، انظر محمد الفاسي: أصول الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البيئة، ص ٥٠ عدد يونيو سنة ١٩٦٢ م.

تستوى كل قطعة من الأرض منفصلة عن الأخرى كذلك كان لهم مهارة فائقة في تشييد عرائس الكروم التي اشتهر بها إقليم غرناطة^(١) وتسوير البساتين^(٢).

المحاصيل الزراعية:

كانت الأراضي الزراعية بإقليم غرناطة مصدراً خصباً لإنتاج كثير من المحاصيل الزراعية المختلفة، حيث شهد الإقليم وفرة في المزروعات فاشتهرت مدن وقرى الإقليم بزراعة عدة محاصيل تميز بها الإقليم عن غيره من أقاليم الأندلس، وقد أشارت المصادر إلى تمتع كثير من مدن وقرى إقليم غرناطة بوفرة المزروعات والحدائق^(٣) ووفرة المحاصيل من القمح والشعير^(٤)، واشتهرت مدينة مالقة بكثرة الفواكه^(٥)، وكذلك مدينة غرناطة فقد كثرت فيها الفواكه خاصة في جبل شلير^(٦) «وفي هذا الجبل أصناف الفواكه العجيبة»^(٧).

(١) ابن الأبار القضاعى: المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى: تحقيق كوديرا وزدين مجريط روخس، ١٨٨٥ م، ص ١٤٥، اشتهرت غرناطة بكثرة عرائس الكروم بها نظراً لشهرتها فى إنتاج الكروم، انظر ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٢٠، «وهى مكلمة الأعناب» ص ١٢٤، عن كثرة الأعناب فى إقليم غرناطة انظر العمري: (وصف أفريقية): ص ٣٥، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٥، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١، يذكر المقرئ أنه «ليس بالأندلس أكثر عبناً... منها» المقرئ: أزهار الرياض: ج ١ ص ١٧٨، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٥٢، طبعة دار صادر، ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥، طبعة سنة ١٩٤٩.

(٢) «ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة» ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١١٥.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٦، ص ٩٨، ص ١٢٠، ص ١٢١، العمري: مسالك الأبصار: (وصف أفريقية) ص ٣٤، ص ٣٥، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٥، الحميرى: الروض المعطار: ص ٢٣، ص ٢٤، ص ٤٥، ص ١١١، ص ١١٢، ص ١٤٣، ص ١٧٧ - ١٧٩، ص ١٨٣، ص ١٨٤، ص ١٨٦، ص ١٩٢.

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، ج ١ ص ٩٦، ص ١٠٩، اللوحة البدوية: ص ٢٢.

(٥) عن فواكه مالقة انظر ابن سعيد: المغرب: ج ١ ص ٤٢٢ - ٤٣٢، كتاب الجغرافيا: ص ١٤٠، المقرئ: نفع الطيب: ج ٣ ص ٢١٩، طبعة بيروت، ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥، طبعة ١٩٤٩، الإدريسي: نزهة المشتاق (ط.د): ص ٢٠٠، ص ٢٠٤، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٩، الحميرى: الروض المعطار: ص ١٧٨.

(٦) ابن سعيد: المغرب: ج ١ ص ١٤٩، العمري: (وصف أفريقية): ص ٣٤، ص ٣٥، الحميرى: الروض المعطار: ص ١١٢.

(٧) الحميرى: المصدر السابق: ص ١١٢.

القمح والشعير:

وقد زرعت تلك المحاصيل في غرناطة فجدات زراعتها فيقول ابن الخطيب: إن فحص غرناطة «بحر من بحور الحنطة»^(١)، ويقول أيضاً إن كثرة قمحها وشعيرها «مما رغب به معاهدتها ابن رزمير كثرة قمحها وشعيرها»^(٢) ومما يدل على كثرة القمح في غرناطة كثرة الأرحاء بها^(٣) ويذكر ابن الخطيب ما نصه: «ويشتمل سور غرناطة وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء على ما ينيف على مائة وثلاثين رحاء»^(٤).

القطن والكتان والحريز

أشار الحميري في كتابه الروض المعطار إلى انتشار زراعة القطن في وادي آش إحدى مدن إقليم غرناطة فيذكر أن «القطن بها كثير»^(٥) وإلى جانب القطن زرع الكتان بكميات وفيرة في وادي آش أيضاً^(٦) ويذكر الحميري: «أن كتان فحص غرناطة يربو على كتان النيل»^(٧) كذلك أشار ابن الخطيب في كتابه الإحاطة إلى وجود الكتان^(٨) في غرناطة، كذلك زرع الكتان^(٩) في مدينة أندرش من أعمال المرية، هذا وقد كثرت تربية دودة القز لإنتاج الحرير نظراً لتوافر شجر التوت في مدن إقليم غرناطة^(١٠)، مثل وادي

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٦، اللمحة البدرية: ص ٢٢.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٠٩، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١.

(٣) العمري: مسالك الأبصار (وصف أفريقية): ص ٣٧، الحميري: الروض المعطار: ص ٢٤.

(٤) ابن الخطيب: نفس المصدر: ج ١ ص ١٣٣، اللمحة البدرية ص ٢٥.

(٥) الحميري: الروض المعطار: ص ١٩٢، «ويذكر عثمان الكعاك في كتابه الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط أن العرب اهتموا اهتماماً خاصاً بإدخال زراعة القطن إلى المغرب ومنها انتقلت إلى أسبانيا» المرجع السابق، ص ٧٤.

(٦) الحميري: المصدر السابق: ص ١٩٢.

(٧) الحميري: المصدر السابق: ص ٢٤، ابن سعيد: المغرب: ج ١ ص ٩٢.

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٩، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١.

(٩) الحميري: نفس المصدر: ص ٣٢.

(١٠) ابن سعيد: الجغرافيا: ص ١٤٠ «وهو ما ذكره معاهدتها ترغيباً لابن رزمير في احتلالها» انظر مجهول: الحلل الموشية، ص ٩١، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ١٠٩، الحميري: الروض المعطار، ص ١٤٣ ص ١٩٢.

آش (١)، وفحص البيرة (٢)، وفنيانة (٣) ومالقة (٤) والمرية (٥) وبسطة (٦)، ويصور الحميري مدى وفرة إنتاج الحرير في إقليم غرناطة فيذكر أن مدينة المرية كانت بها ثمانمائة دار لصناعة الحرير (٧).

الزيتون

وهو من المحاصيل الوفيرة في إقليم غرناطة، فقد اهتم المرابطون والموحدون بزراعته، فكانت مدينة وادي آش (٨) تنتج كميات وفيرة منه كذلك مدينة غرناطة (٩) وفنيانة (١٠) والمرية (١١) وقمارش (١٢) وبسطة (١٣).

-
- (١) الحميري: الروض المعطار: ض ١٩٢ .
 (٢) الحميري: المصدر السابق: ص ٢٤، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٩، الاصطخرى: المسالك والممالك: ص ٣٦، ياقوت: معجم البلدان: ج ١ ص ٢٤٤ .
 (٣) الحميري: الروض المعطار: ص ١٤٣ .
 (٤) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا: ص ١٤٠، طبعة سنة ١٩٨٢ .
 (٥) الإدريسي: طبعة ليدن: ص ١٩٧، الحميري: الروض المعطار: ص ١٨٤، صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٧ .
 (٦) الإدريسي: (صفة المغرب) (ط.د.): ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات ص ٣١، حاشية ٩ نشر أحمد مختار العبادي .
 (٧) الحميري: الروض المعطار: ص ١٨٤ .
 (٨) الحميري: المصدر السابق: ص ١٩٢ .
 (٩) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٩، ص ١٢٠، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١، تحقيق عبد القادر زمامة .
 (١٠) الحميري: المصدر السابق: ص ١٤٣ .
 (١١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٧، العمرى: وصف أفريقيا: ص ٤٦ .
 (١٢) ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٧٩، هامش ١ .
 (١٣) الإدريسي: صفة المغرب: ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٣١، هامش رقم ٩، الحميري: نفس المصدر: ص ٤٤ .

قصب السكر

وقد كثرت زراعته بمدن متفرقة من إقليم غرناطة^(١) فقد زرع في فحص غرناطة وشلوبين^(٢) أما المنكب فقد كانت أعظمهما إنتاجاً لقصب السكر^(٣).

الفواكه

شهد إقليم غرناطة وفرة في زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة وتشير المصادر^(٤) إلى كثرة وتنوع فاكهة إقليم غرناطة^(٥) فالعمري يشير إلى ذلك بقوله «وهي (غرناطة) كثيرة الأمطار والأنهار والبساتين والشجر والفواكه... خصوصاً التفاح والقرصيا البعلبكية التي لا تكاد

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٨، الحميري: نفس المصدر: ص ٢٤، ص ١١١ الونشريشى (أبو العباس أحمد بن يحيى): المعيار المغرب: ج ١٠ ص ٢١٤، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: ص ٢٠٥.

(٢) الحميري: ص ١١١، «قرية مسكونة على ضفة البحر بينها وبين المنكب عشرة أميال يوجد فيها الموز وقصب السكر»: المصدر السابق: نفس الصفحة، الإدريسي: صفة المغرب، ص ١٩٩.

(٣) العمري: (وصف أفريقية): ص ٤٧، القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٨، ياقوت: معجم البلدان: مادة المنكب، البغدادي: مراصد الاطلاع: ج ٣ ص ١٦٤، ابن الخطيب: نفاضة الجراب: نشر أحمد مختار العبادي: ص ١٠٩، هامش ١، ص ٣٠٠، هامش ٦، الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٤) الإدريسي: صفة المغرب، ص ١٩٧، ص ١٩٩، ص ٢٠٠، ص ٢٠٢، ص ٢٠٤، ابن سعيد: الجغرافيا، ص ١٤٠، ابن سعيد: المغرب، ج ٢ ص ١٠٢، ص ١٥٤، ص ١٩٣ - ص ١٩٤، ج ١ ص ٤٢٣، ص ٤٤٢، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨، ص ١٥٥، ص ١٢٠ وما بعدها، ابن الخطيب: اللوحة البدرية، ص ٢٩ وما بعدها، ابن الخطيب: مشاهدات، ص ٧٩ هامش ١، ص ٨٠ هامش ٥، ص ٩٢ هامش ٢، ص ٩٣ هامش ٦، ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص ٢٨٦ هامش ٣، العمري: وصف أفريقية ص ٣٤، ص ٣٥، ص ٤٦، ص ٤٧، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٥، ص ٢١٧، ص ٢١٨، ص ٢١٩، مجهول: الحلل الموشية: ص ٩١، الحميري: الروض المعطار، ص ٢٣، ص ٢٤، ص ٤٥، ص ١١١، ص ١١٢، ص ١٤٤، ص ١٧٨، ص ١٨٤، ص ١٨٦، ص ١٩٢.

(٥) عن فواكه غرناطة انظر فواكه جبل شيلبر، الحميري: المصدر السابق، ص ١١١، المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٤١، ص ١٤٢، ص ١٤٣، ص ١٤٥، ص ١٥٥، طبعة سنة ١٩٤٩.

توجد في الدنيا منظرًا حلاوة حتى أنها ليعصر منها العسل»^(١)، ويؤكد ذلك الحميري: بقوله «وما من فاكهة توصف وتستظرف إلا وما هناك من الفاكهة فوقها»^(٢) كما يؤكد ذلك ابن الخطيب بقوله «وأرضها سقى غزيرة الأنهار، كثيرة الثمار، ملتفة الأشجار، أكثرها أدواح الجوز، ويحسن فيها قصب السكر»^(٣) فإذا انتقلنا إلى مدن وقرى إقليم غرناطة فالحميري يصف بسطة «وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة»^(٤) أما وادي آش فهى «حصينة كثيرة الفواكه والمزارع»^(٥) فإذا حاولنا التعرف على مناطق إنتاج الفاكهة فى إقليم غرناطة وجدنا أن مدينة غرناطة كانت من أكثر مدن الإقليم إنتاجاً لعدة أنواع من الفاكهة^(٦) منها التفاح والقرصيا البعلبكية^(٧).

كذلك اشتهرت جليانة من أعمال وادي آش بالتفاح الجليانى «الذى يضرب به المثل فى الأندلس»^(٨) ويصف المقرئ تفاح جليانة بقوله «وبه التفاح الجليانى الذى خص الله به ذلك الموضع، يجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وزكاء الرائحة والنقاء»^(٩). أما العنب والتين، فقد اشتهر إقليم غرناطة بكثرة إنتاج كميات وفيرة منهما، فمدينة غرناطة كانت كثيرة التين والأعناب والخوخ^(١٠) والآجاص والكمثرى^(١١)، أما مالقة -

(١) العمرى: وصف أفريقية: ص ٣٤، ص ٣٥.

(٢) الحميرى: المصدر السابق: ص ٢٤.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨.

(٤) الحميرى: نفس المصدر: ص ٤٤، ويؤكد نفس الوصف تقريباً كل من الإدريسي: (صفة المغرب) (ط. د): ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٣١، حاشية ٩.

(٥) الإدريسي: (صفة المغرب): ص ٢٠٢، الحميرى: الروض المعطار، ص ١١٢.

(٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٩٧، ص ١٩٩، ص ٢٠٠، ص ٢٠٢، ص ٢٠٤، العمرى: (وصف أفريقية): ص ٣٤، ص ٣٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٥ - ص ٢١٩،

ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ ص ٩٨، الحميرى: المصدر السابق: ص ٢٣، ص ٢٤، ص ١١٢.

(٧) العمرى: المصدر السابق: ص ٣٤، ص ٣٥، القلقشندي: نفس المصدر، ج ٥ ص ٢١٥.

(٨) ابن سعيد: المغرب: ج ٢ ص ١٤٨.

(٩) المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٤٣، طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٤٩، طبعة بيروت.

(١٠) العمرى: المصدر السابق، ص ٣٥، القلقشندي: نفس المصدر، ج ٥ ص ٢١٥، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٠٩، مجهول: الحلل الموسوية، ص ٩١، المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص

١٦٤ طبعة سنة ١٩٤٩.

(١١) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ ص ١٢٠.

إحدى مدن إقليم غرناطة - فقد اشتهرت أيضا بكثرة إنتاجها من العنب والتين إذ يذكر المقرئ أنها «كثيرة الفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير»^(١) كذلك كانت بليش مالقة من أعمال مالقة «كثيرة اللوز والعنب والتين»^(٢) كما أن قمارش من أعمال مالقة أيضا، «وافرة الماء والزرع من كروم وريتون وجوب»^(٣) كذلك التين المالقي^(٤) الذي يصل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند^(٥)، كذلك أنتجت كل من بليش مالقة وقمارش أنواعا جيدة من التين^(٦) أضف إلى ذلك الرمان^(٧) أما الجوز واللوز والقسطل فقد أنتجت مدينة غرناطة كميات كبيرة منه^(٨)، كذلك كانت مدينة مالقة من أهم مدن الإقليم إنتاجا لثمار الجوز واللوز^(٩) والذي كان يصدر إلى داخل البلاد وخارجها^(١٠) أما الموز فقد زرع بكميات كبيرة في كل من شلوبين^(١١) والمنكب^(١٢).

- (١) المقرئ: المصدر السابق، ج ١ ص ١٥٢، دار صادر بيروت، ج ١ ص ١٤٥، طبعة ١٩٤٩.
- (٢) ابن الخطيب: مشاهدات، ص ٧٨ حاشية رقم ٢ ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٤٢.
- (٣) ابن الخطيب: مشاهدات، ص ٧٩، حاشية ١.
- (٤) ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠، ابن سعيد: المغرب، ج ١ ص ٤٢٢ إلى ص ٤٣٢ تَمَيَّزَ تين مالقة بالإضافة لحلاوة الطعم، عدم تسوسه واحتماله البقاء مدة طويلة دون أن يفسد، انظر ابن الوردى خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٣٠، العمري، وصف أفريقية ص ٣٨.
- (٥) ابن سعيد: الجغرافيا نفس الصفحة، ابن سعيد: المغرب ج ١ نفس الصفحات، الإدريسي، زهرة المشتاق (ط.ر) ص ٢٠٠، ص ٢٠٤.
- (٦) ابن الخطيب: مشاهدات ص ٧٨ حاشية ٦ ص ٧٩ حاشية رقم (١) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٤٢.
- (٧) الإدريسي: (صفة المغرب) (ط.د): ص ٢٠٠، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٤٢، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥ ط سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٢ طبعة دار صادر بيروت.
- (٨) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، ص ١٠٩، ص ١٢٠، العمري: (وصف أفريقية) ص ٣٥، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٥، الحجري الروض المعطار ص ٢٤.
- (٩) ابن سعيد: المغرب، ج ١ ص ٤٢٢، ابن سعيد: الجغرافيا: ص ١٤٠.
- (١٠) المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٥٢ طبعة دار صادر بيروت ج ١ ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٩ القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩ الحميري نفس المصدر ص ٤٧.
- (١١) العمري: نفس المصدر ص ٤٦ «ويوجد فيها الموز» انظر الحميري: الروض المعطار ص ١١١.
- (١٢) العمري: المصدر السابق ص ٤٦، القلقشندى، نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٨ الحميري: السابق ص ١٨٦ «أما المنكب ففيها الموز الذي لا يوجد في بلد من البلاد الإسلامية» العمري: نفس المصدر ص ٤٧.

أما قصب السكر فقد كان فى المنكب كميات وفيرة «ويزرع بها قصب السكر حيث يصدر إلى البلاد الأخرى وبها زيب مشهور»^(١١).

ويضاف إلى هذه الثروة الزراعية من المحاصيل والفواكه تلك النباتات التى استعملت فى صناعة الأدوية، إذ يذكر ابن الخطيب أن جبل شلير كان مستودعاً للنباتات الترياقية^(١) أى ذات الخواص الطبية^(٢) وفيها السنبل فائق الطيب وبه الجنطيانة، يحمل إلى جميع الآفاق، وهو عقير رفيع ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه وبه المرقشيتة^(٣) واللازورد وبفحصها ما يتصل به القرمز وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يتحمل ذكرها^(٤) هذا بالإضافة إلى زعفران باغة^(٥) وبسطة وعود المعطر فى ولاية^(٦).

(١) العمرى: (وصف أفريقية) ص ٤٧ عن المنكب وما تنتجه من موز وقصب وسكر وزيب، انظر الإدريسي (صفة المغرب) (و.د) ص ١٩٩ ياقوت معجم البلدان ج مادة (منكب) البغدادي: مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٦٤، ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ١٠٩ حاشية ١، ص ٣٠٠ حاشية ٦، ابن الخطيب، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١: اللمحة البدرية ص ٢٩ الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٦، ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢١٨.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٦.

(٣) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون ص ٥٦٠، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٦٧م، ١٣٨٦هـ.

(٤) المرقشيتة أو المرقشيطة حجر ذو خواص طبية يغلب على الظن أنه اليزموت وذكره ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة راجع عنه جامع المفردات فى كتاب (ضوابط دار السكة) لعلى بن يوسف الحكيم تحقيق حسين مؤنس: سنة ١٩٦٠ م وقد سبق التعريف به.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢، المقرئ: نفع الطيب، ج ١ ص ١٤٢ طبعة ١٩٤٩، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٦، العمرى: (وصف أفريقية) ص ٣٥.

(٦) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٢ طبعة سنة ١٩٤٩ عن زعفران بسطة انظر: ابن الخطيب مشاهدات ص ١٣ حاشية ٩.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، ص ٩٩، طبعة سنة ١٩٤٩.

الثروة الحيوانية

الرعى وتربية الماشية

وقد صاحب كثرة الغرس والزراعات المختلفة أن حظى إقليم غرناطة بثروة حيوانية كبيرة^(١) إذ كانت الأرض الزراعية الخصبة بما شهدته من تنوع فى المزروعات وكذلك بعض أراضى المراعى أماكن هامة لتربية الماشية فاشتغل بعض السكان بحرفة الرعى وتربية الماشية، فيروى ابن الخطيب: (وأن أهالى قرى غرناطة عملوا بالرعى وتربية الحيوانات التى تساعد فى حرث الأرض)^(٢) كالبحر والجاموس وقد قام أهل مالقة أيضا بتربية الماشية والحيوانات الأخرى كالغنم والبقر والخيل والبغال التى كانت وسيلة المواصلات الرئيسية أما الماشية فكانت تربي للحصول على منتجات الألبان كالجبين والزبد والسمن وللحصول على اللحم والجلود كما كانت تربي أيضاً للاستكثار والعمل فى الحقول^(٣) كما انتشرت تربية الخنازير فى جميع بوادى الأندلس بما فيها إقليم غرناطة^(٤).

تربية الطيور والدواجن

وإلى جانب الرعى وتربية الماشية قام أهل غرناطة بتربية الدواجن والطيور فعلى امتداد أربعين ميلاً فى فحوص غرناطة كانت تنتشر أبراج الحمام^(٥) ويصف ابن الخطيب مدينة غرناطة فيقول «ذات بروج سامية وبيادير فسيحة ومصاب للحمام والدواجن مائلة»^(٦).

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٢٦.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق: ص ١٢٦.

(٣) ابن حزم: الرد على ابن النغيلة اليهودى ص ١٧٥ - ١٧٧ المقرئ: أزهار الرياض فى أخبار عياض فى ج ١ ص ١٢٩، ج ٢ ص ٢٦٩.

(٤) الونشريشى: المعيار المغرب ج ٨ ص ١٢٧، ص ١٦٨.

(٥) العمري: (وصف أفريقية) ص ٣٦، يؤكد هذا القول العمري حيث يقول «ويمر شنيل غربى غرناطة إلى فحوصها يشق منها أربعين ميلاً بساتين وقرى وضياح كثيرة البيوت والعلالى وأبراج الحمام وغير ذلك من المباني» العمري (وصف أفريقية) ص ٣٦.

(٦) ابن الخطيب - الإحاطة ج ١ ص ١٢٥، اللوحة، البدرية ص ٢٤.

الثروة السمكية

كان لموقع إقليم غرناطة الساحلى مع كثرة الأنهار والوديان أثر كبير فى نزويد الإقليم بثروة سمكية كبيرة حيث مارست طائفة من السكان مهنة الصيد من شرائطى البحار والأنهار، فكان الصيادون يصطادون كميات كبيرة من الأسماك، فمدينة المنكب يكثر بها صيد الأسماك^(١) كذلك شلوبنية التى تقع على البحر المتوسط على بعد ستة عشر كيلو مترا شرقى المنكب^(٢) فهى وافرة الأسماك^(٣)، كذلك كانت مالقة مركزاً كبيراً لصيد الأسماك^(٤) وكانت تملح وتحفظ فى مستودعات خاصة^(٥) أما مربلة فقد كانت أيضاً مركزاً هاماً لصيد السردين^(٦) كذلك اشتهرت بزليانة - وهى قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة - بصيد أسماك الحوت^(٧) وتصديرها إلى الجهات المجاورة^(٨).

- (١) الإدريسى (صفة المغرب) ص ١٩٩ (طبعة دورى) ياقوت، معجم البلدان ج ٨ مادة منكب، اليفدادي: مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٦٤، ابن الخطيب: نفاضة الجراب، نشر العبادى ص ١٠٩ حاشية (١) ص ٣٠٠ حاشية رقم ٦، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٦.
- (٢) الحميرى: المصدر السابق ص ١١١.
- (٣) ابن الخطيب: مشاهدات: نشر أحمد مختار العبادى عر ٨٠ حاشية ٥.
- (٤) الإدريسى: نزهة المشتاق ص ٢٠، ابن بصوطة، الرحا ج ٢ ص ٨٦، ص ١٨٧، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٨ المقرئ: نفيح الطيب ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥، ص ١٨٦.
- (٥) ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ٢٨٦ هامش ٣ أعطاها الفينبقيون منذ أن أسسوها سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد اسم Malaha أى المالحة نسبة إلى شهرتها فى إنتاج هذا النوع من الأسماك.
- (٦) ابن الخطيب: مشاهدات ص ٧٥ حاشية ٤ عن مربلة انظروا الحميرى: الروض المعطار: ص ١٨٠.
- (٧) الحميرى: الروض المعطار ص ٤٤.
- (٨) الإدريسى: نزهة المشتاق (طبعة - دورى) ص ٢٠٠.

الصناعة

لعبت الصناعة دورها في ازدهار الحياة الاقتصادية في إقليم غرناطة في عصر المرابطين وخلفائهم الموحدين، ونعني بالصناعة^(١) في هذا الفصل تصنيع الإنتاج الزراعي وما يتصل به واستنباط المعادن وتصنيعها والاستفادة من ذلك كله في سد احتياجات المواطنين من أهل الإقليم من المواد الاستهلاكية وغيرها والاستفادة من فائض هذه الصناعات في تصديرها إلى خارج البلاد، وهو ما ستفصله في فصل التجارة.

ولا تجيء دراسة الصناعة مكتملة بغير النظر في عدة أمور: أهمها توفر المادة الخام التي تقوم عليها الصناعة مع وجود الخبرة الصناعية المتمثلة في الأيدي العاملة والتي عليها قامت الصناعة وازدهرت.

وقد كان لتوفر المادة الخام في إقليم غرناطة أثر في أن قامت عدة صناعات أهمها صناعة النسيج^(٢) وصناعة السفن^(٣) وصناعة بعض الأدوات من النحاس والحديد بالإضافة إلى عدة صناعات أخرى سيجيء الحديث عنها تفصيلاً، فإلى أي مدى خدمت المادة الخام الصناعة؟

توفر المادة الخام

توفرت المادة الخام اللازمة للصناعة في إقليم غرناطة حيث وجدت بكميات كبيرة، وتنقسم المادة الخام إلى نوعين: معدنية وغير معدنية، فالمعدنية مثل الذهب والحديد والنحاس والتوتيا... إلخ، أما غير المعدنية فهي إما نباتية أو حيوانية بالإضافة إلى الأحجار الكريمة والرخام.

(١) يقسم ابن خلدون الصناعة إلى معينة مثل النجارة والحداة والحياكة، وغير معينة مثل الرراقة والكتابة والغناء والشعر وتعليم العلم (التدريس) انظر ابن خلدون: المقدمة ص ٤٠٠ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨ م - ١٣٩٨ هـ الطبعة الرابعة، محمد طرشونة: نظرية ابن خلدون في الاقتصاد والعمران، مجلة الفكر (تونس) العدد ١٥. طبعة سنة ١٩٦٧ م.

(٢) عن صناعة النسيج في إقليم غرناطة انظر الإدريسي: نزهة المشتاق (ط: د) ص ١٩٧، ص ١٩٨، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٤٠، ابن تغلب، فرحة الانفس ص ٢٨٣، العمري: (وصف أفريقيا) ص ٤٥، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٤، الإدريسي: ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨ هامش رقم ٢.

(٣) العمري: (وصف أفريقيا): ص ٤٥، ص ٤٧، ص ٤٨، القلقشندي: صريح الأعشى ج ٥ ص

وقد أمدنا الجغرافيون العرب بمادة وفيرة في هذا الموضوع إلا أنهم لم يتحدثوا عن التفصيلات الفنية الدقيقة لاستخراج المعادن^(١) ولا ترد أى إشارات عن طرق استخراج المعادن سوى ما أورده الحميري عن طريقة التعدين التي شاهدها فى حصن أبال بالقرب من قرطبة فقد ذكر أن عمق البئر أكثر من خمسين ومائتى قامة ويخدم المعدن أكثر من ألفى شخص تتخصص كل مجموعة فى عمل مثل قطع الأحجار وصنع أوانى السبك والحرق ونقل^(٢) الحطب.

ولقد أشار الرحالة المسلمون المشاركة - منهم والمغاربة الذين رأوا الأندلس - إلى الثروات الطبيعية للبلاد وخاصة المناطق الجنوبية، وتحدثوا عن الذهب فى غرناطة^(٣) «وكان يلتقط سحالة الذهب الخالص^(٤)» ومن نهرها المعروف باسم حدره^(٥) كذلك استخراج من البيرة^(٦) وهى من أعمال غرناطة.

أما معدن الفضة فكان يستخرج من البيرة^(٧) ولوشة^(٨) وكان أهل غرناطة على علم بطرق استخراج هذه المعادن الثمينة من مناجمها^(٩).

واستخلاص الشوائب منها، وكان الذهب والفضة يستعملان فى السكة^(١٠) والزينة.

(I) L. Provençal, l'esp. Mau, x. s. p 176

(٢) الحميري: الروض المعطار ص ١٠.

(٣) ابن غالب: فرحة الأنفس مجلدة معهد المخطوطات العربية، تحقيق لطفى عبد البديع ص ٢٨٣ ج ١ طبعة ١٩٥٥ تحقيق لطفى عبد البديع، ياقوت معجم البلدان ج ٥ مادة غرناطة، ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، نفس المؤلف: اللحة البدرية ص ٢٢، ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٦٧، الحميري: الروض المعطار ص ٢٣، ص ٢٤.

(٤) الحميري: المصدر السابق ص ٢٣، ابن الحكيم الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة «حيث يذكر فى كتابه» أن الذهب كان بها قليلاً ولكنه جيد، المصدر السابق ص ٨٥.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٩٠.

(٦) الحميري: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٧) الاصطخرى: المسالك والممالك ص ٣٦، ابن غالب، المصدر السابق ص ٢٨٣، ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللحة البدرية: ص ٢٨، الحميري: الروض المعطار ص ٢٤، ياقوت: معجم البلدان مادة غرناط تابع والبيرة، ابن يوسف الحكيم: ضوابط دار السكة ص ٨٥.

(٨) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٢ طبعة ١٩٤٩، ابن الخطيب مشاهدات ص ٩٣ حاشية ٦ اللحة البدرية ص ٢٨ Ency of Islam - art. Iojja «لوشة مدينة على بعد خمسة وخمسين ميلاً غرب غرناطة».

(٩) الحميري: الروض المعطار ص ٢٤، ابن يوسف الحكيم: ضوابط دار السكة ص ٨٥.

(١٠) على بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ص ٨٥، ص ١٠٢.

أما معدن الحديد فكان يوجد في المرية^(١) في موضع يسمى بكارش^(٢) ودلاية^(٣) كذلك استخرج من البيرة^(٤) ووجد الحديد بكميات كبيرة في مدينة غرناطة^(٥) ومدينة مالقة^(٦) أما معدن النحاس فكان يوجد كذلك في غرناطة^(٧) وبعض أعمالها مثل البيرة^(٨) وكذلك المرية التي اشتهرت بالصناعات النحاسية^(٩)، أما معدن الرصاص فقد استخرج من غرناطة^(١٠) والبيرة^(١١) والمرية^(١٢) كما استخرج معدن التوتيا في قرية تسمى بطرنة من أعمال البيرة^(١٣) وكذلك استخرج معدن التوتيا أيضا من حصن شلوبونية من أعمال غرناطة^(١٤).

(١) يذكر المقرئ في وصفه لمدينة المرية «وتشتمل كورتها (أى المرية) على معدن الحديد» المقرئ المصدر السابق ص ١٥٣، ١٥٤ طبعة ١٩٤٩ م وص ١٦٢ طبعه ١٩٦٨، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤.

(٢) يذكر المراكشى في كتاب المعجب «وفى أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يسمى بكارش فيه معدن حديد أيضا» المراكشى المصدر السابق، ص ٤٤٨ طبعة ١٩٦٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢ «تقع دلاية غرب المرية فى جنوب سفح جبل (غدر) Gadrt على مقربة من البحر المتوسط» انظر ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨ هامش رقم ٢.

(٤) ابن غالب: فرحة الأنفس ص ٢٨٣، ياقوت: معجم البلدان مادة البيرة ج ١ ص ٢٢٤، ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٩٨، اللمحة البدرية، ص ٢٢، الحميرى: الروض المعطار ص ٢٤.

(٥) ابن الخطيب الإحاطة ج ١: نفس الصفحة، واللمحة البدرية ص ٢٢.

(٦) الإدريسي: (نزهة المشتاق) ص ١٩٧.

(٧) ابن الخطيب: نفس المصدر ج ١، ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢ الحميرى: الروض المعطار ص ٢٤.

(٨) ابن غالب: نفس المصدر ص ٢٨٣، الحميرى: المصدر السابق: نفس الصفحة، ياقوت: معجم البلدان، مادة البيرة ج ١، ابن الخطيب: نفس المصدر ج ١ ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢.

(٩) الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة دورى) ص ١٩٧ نفع الطيب ج ١ ص ١٥٤ طبعة سنة ١٩٤٩ م، ص ١٦٣ ج ١ طبعة دار صادر ١٩٦٨.

(١٠) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢، الحميرى: الروض المعطار ص ٢٤.

(١١) الحميرى: المصدر السابق ص ٢٤.

(١٢) المراكشى: المعجب، ص ٤٤٨.

(١٣) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللمحة البدرية ص ٢٢ الحميرى نفس المصدر ص ٢٤، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٣٨ ١٩٤٩، ص ٢٠٢ طبعة ١٩٦٨ الإدريسي نزهة المشتاق: ص ١٩٨.

(١٤) ياقوت: معجم البلدان مادة شلوبونية التوتيا معدن يكتحل به، انظر سعيد الخورى الشرتونى أقرب المورد فى فصح العربية والشوارد ص ٨١ باب الثاء والواو.

هذه بالإضافة إلى معدن المرقشيتا^(١) واللازورد^(٢)، كذلك كان الملح^(٣) يستخرج من إحدى القرى التابعة للمرية، أما الياقوت الأحمر^(٤) فكان يستخرج من حصن منت ميور من كورة مالقة حيث استخدم في صناعة الحلوى.

أما مقاطع^(٥) الرخام في إقليم غرناطة فكان يوجد في البيرة مقطع للرخام^(٦) لين أبيض «يتصرف تصرف الكذان»^(٧) لئنه ورطوبته، وتعمل منه الأقداح والأكواب والأطباق والأسطال وكل ما يخرط من الخشب يخرط منه^(٨)، كذلك وجد نوع من الرخام الجيد في باغة من أعمال غرناطة موشاة في حمرة وصفرة^(٩).

كذلك أنتجت مدينة المرية نوعاً من الحصى يشبهه المقرى بأنه «كالدر في رونقه وله ألوان عجيبة»^(١٠) وقد استخدم هذا النوع من الحصى في تجميل وتزيين حوائط المنازل والقصور والمساجد.

الصناع وأرباب الحرف

وكما توفرت لإقليم غرناطة المادة الخام التي اعتمدت عليها الصناعة في تصنيع منتجاتها المختلفة اعتمدت أيضاً على الأيدي العاملة المدربة والتي انتشرت في أنحاء البلاد لتصنيع الصناعات المختلفة التي احتاجتها الدولة نتيجة للتقدم الحضارى والعمرانى الذى بدأته دولة المرابطين وأكملته الدولة الموحدية والتي شجعت الصناعة نتيجة لازدياد حاجة

(١) معدن المرقشيتا سبق التعريف به انظر ص ٢٢٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللوحة البدرية، ص ٢٣.

(٣) ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٨٢ هامش ١.

(٤) المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٨ طبعة سنة ١٩٤٩.

4) scott: hist of the Moorish Empire, Vol, 111 p. 628

(٥) مقاطع: جمع، وهو اسم مكان من القطع يريد الأماكن التي يقتطع منها الرخام، المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ طبعة ١٩٤٩.

(٦) ابن غالب: فرحة الأنفس ص ٢٨٣.

(٧) المصدر السابق: نفس الصفحة «الكذان» نوع من الحجارة الرخوة انظر لسان العرب مادة «كذن».

(٨) ابن غالب نفس المصدر والصفحة.

(٩) المقرى: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٤٩ م.

(١٠) المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٤٩، ص ٢٠١ طبعة ١٩٦٨.

الدولة للصناعات المختلفة واتساع نطاق العمارة وازدياد الطلب على أدوات الترف المختلفة، ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: إن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته»^(١)

أطلق المغاربة والأندلسيون على العمال لفظ «الصناع»^(٢) أما الموحدون فقد أطلقوا عليهم اسم عبيد المخزن^(٣)، والعمال ثلاثة أصناف: الصانع الخاص^(٤)، وهو الذى يعمل عند صاحب العمل أو مالك الصنعة^(٥) والظاهر أن كثير من هؤلاء الملاك من الفقهاء أو ذوى النفوذ الإداري^(٦) ونادراً ما كان هذا المالك يقوم بالعمل والخدمة^(٧) بنفسه وإنما كان يستأجر عمالاً يشتغلون تحت إشرافه^(٨)، أما النوع الثانى من الصناع فهو الصناع المشترك وهو ليس بأجير عند رب العمل وإنما يجلس للعمل ويخدم كل من يقدم إليه حاجته^(٩) مثل الخراز^(١٠) والخياط^(١١) والصبغ والديباغ والنشار^(١٢) ثم هو الصناع المتجول مثل صناع الأواني الحديدية أو الخشبية وينتقل من بلد إلى آخر حسب العرض والطلب^(١٣) هذا ولم

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص ٤٠٠.

(٢) السقطي: رسالة فى الحسبة: ص ٦٢.

(٣) العمري: مسالك الأبصار (وصف أفريقية) ص ١٠.

(٤) أبو الحسن على بن رحال: كشف القناع عن مسائل الصناع، الخزانة العامة الرباط مجموعة رقم ١٠٧٩ د. ص ٣٩ و- ص ٤٠ ق.

(٥) تشير النوازل إلى الملكية فى المعادن والأرحاء والأفران والحمامات والملاحات والمعاصر ومصانع النسيج، عن تلك الملكيات انظر الونشريشى: المعيار ج ٩ ص ٤٠٨ وما بعدها، ابن الأبار: الحلة السيرة ج ٢ ص ٢٦٠ تحقيق حسين مؤنس.

(٦) الونشريشى: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٢، ابن الأبار: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦.

(٧) الونشريشى: نفس المصدر ج ٥ ص ٢٢، ج ١٠ ص ٦٦.

(٨) ابن رحال: كشف القناع عن مسائل الصناع مخطوط الخزانة العامة الرباط مجموعة رقم ١٠٧٩ د. ورقة ٣٩، ٤٠.

(٩) ابن رحال: كشف القناع، مخطوط، ورقة ٣٩ ر- ٤٠ ر.

(١٠) الخراز هو محترف صناعة الجلد.

(١١) هو الذى يقوم بخياطة الثياب، السقطي، رسالة فى الحسبة ص ٦٢.

(١٢) الصباغ هو الذى يقوم بصبغة الثياب، والديباغ هو الذى يقوم بديباغة الجلود، والنشار هو الذى يقوم بالنجارة ونشر الخشب، انظر السقطي: المصدر السابق ص ٦٣ - ص ٦٥.

(١٣) ابن عبد الله المراكشى: الذيل والتكملة لكتاب الموصل والصلة تحقيق إحسان عباس بيروت دار

يكن الصناع رجالاً فحسب، بل كان بينهم عدد كبير من النساء وأغلبهن احترفن صناعة الغزل والنسيج^(١).

وكان كل نوع من أنواع الحرف يحتل شارحاً أو سوقاً باسمه^(٢) مثل ريش الفخارين^(٣) بغرناطة وسوق العطارين^(٤) والصباعين والوراقين والدباغين^(٥) والطوابين^(٦).

هذا وكان الحرفيون والصناع منتظمين في طوائف على رأس كل منها عريف أو أمين^(٧) ويكون تعيينه عادة من قبل القاضى أو المحتسب، وكانت له السلطة عليهم وهو مسئول عن كل ما يحدث مباشرة في جماعته طبقاً للقواعد الموضوعة والأعراف المستقرة التي يلم بها، فضلاً عن مراقبته لصنعتة فهو خبير بالجيد والردىء من حرفته^(٨) هذا وقد استفاد المرابطون من خبرات أهل الأندلس في الصناعة.

فيوسف بن تاشفين حين عمد إلى التوسع في البناء والتعمير استفاد كثيراً من صناع أهل الأندلس^(٩)، وقد قام الصناع في كل من المرية وغرناطة ببناء أسوارهما وتعتيها^(١٠)،

(١) ابن عبدون ثلاث رسائل أندلسية: ص ٥٥ «يجب أن لا يباع غزل القطن، ولا الكتان، مكبباً فهو موضع غش لأن النساء يدلسن فيه ليزيد لهن في الوزن انظر ابن عبدون: المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) ابن عبدون: المصدر السابق: ص ٤٣.

(٣) العمرى: وصف أفريقية: ص ٤٣.

(٤) المقرى: نفع الطيب ج ٢ ص ٣٩٤ طبعة سنة ١٩٤٩، العمرى: وصف أفريقية ص ٤١.

(٥) العمرى: المصدر السابق: ص ٤٠.

(٦) العمرى: نفس المصدر ص ٤١ عن هذه الأسواق انظر: نظم الجمان ص ١١٨، ابن عبدون المصدر السابق ص ٤٣.

(٧) السقطى: رسالة في الحسبة ص ٣٩، ص ٥٦، ابن عبدون المصدر السابق، ص ٥٣.

(٨) المجيلدى (أحمد سعيد): التيسير في أحكام التسعير، تحقيق موس أقبال الجزائر سنة ١٩٧٠ ص ٥٦، ابن عبدون، نفس المصدر ص ٢٤، ص ٥٧ الجرسفى رسالة في الحسبة ص ١٢٥، السقطى: نفس المصدر ص ٩.

(٩) الجزنائى: زهرة الآسى في بناء مدينة فاس ص ٣٢، ابن القاض: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس - طبع حجر فاس سنة ١٢٠٩ ص ٢٧ هـ.

(١٠) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣، ص ٧٤.

وجرى على نفس السياسة الخلفاء الموحدون من استقدام الصناع المهرة إلى مراكش وذلك للاستفادة بخبراتهم ومن أمثلة ذلك استقدام الخليفة عبد المؤمن بن علي من إقليم غرناطة الحاج يعيش المالقي الذي أمره بصناعة مقصورة هندسية ميكانيكية بالمسجد الجامع^(١) وقد وضعت المقصورة على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله^(٢).

هذا وقد اضطرت الأزمة المالية على بن يوسف لفرض ضرائب باهظة ففرض على كل الصناعات قبالات^(٣)، وكانت من أشد ما أنكره ابن تومرت على المرابطين، حيث استخدم ذلك في دعايته السياسية ضدهم^(٤).

وعندما قامت الدولة الموحدية حرص الخليفة عبد المؤمن على حماية الصناع «لأن الصناع هم الذين ينتفع بهم»^(٥) كما أسقط جميع القبالات على الصناعات وفرضت تلك القبالات حسب دخل الصناع من صنعهم وترك تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة في كل مدينة^(٦)، لذلك تركزت الصناعات المختلفة في مناطق إقليم غرناطة وشهد الإقليم تطوراً كبيراً في عدة صناعات مختلفة مثل الصناعات المعدنية والصناعات الزراعية والغذائية ثم بعض الصناعات المتنوعة والتقليدية.

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٩، مجهول: مجموعة رسائل موحدية ض ٩٧ تحقيق ليفي بروفنسال الرباط سنة ١٩٤١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق: (طبعة د.د.) ص ٧٠ «القبالة هي في الأصل الضريبة» التي تدفع لبيت المال وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة عن الشرع وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية» انظر ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق محمود على مكى تطوان سنة ١٩٥٦ ص ١٥٦ الونشريسي: المعيار ج ٨ ص ١٧٨ «سخط ابن عبدون على المتقلين وجعلهم شر أهل الأرض» انظر ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية ص ٣٠.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٥٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ١٠ ص ٥٨٤.

(٦) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية، فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية ص ١١٥، الجزائر المطبعة الثعالبية سنة ١٣٢٨ هـ.

الصناعات المعدنية

اشتهر إقليم غرناطة بإنتاجه الوفير من المواد المعدنية مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص والتوتيا والنحاس^(١)، وكان لتوفر هذه المعادن في إقليم غرناطة أن اشتهرت عدة مدن بالصناعات المعدنية واشتهرت مدينة المرية بعدة صناعات معدنية مختلفة من أهمها آلات الحرب من التروس والرماح والسروج والدروع^(٢)، وكانت المرية وبسطة دارى «صناعة الأندلس» في العصر المرابطي^(٣).

وفي العصر الموحدى، تقدمت مالقة في الصناعات المعدنية بعد أن انهارت صناعات المرية خلال فترة الانتقال^(٤)، فاختصت مالقة بصناعة آلات الصفر والنحاس والحديد من سكاكين ومقصات ذهبية وجميع ما يحتاجه المنزل من أوان خاصة لمختلف الأغراض اليومية، كما صنعوا من الحديد أيضاً التروس والرماح والدروع والسيوف^(٥).

كما تقدمت صناعة السفن بسبب اهتمام المرابطين والموحدين بإنشاء السفن الحربية

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨، ابن الخطيب: اللحة البدرية ص ٢٢، الحميرى: الروض المعطار، ص ٢٤.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق (صفة المغرب) (طبعة د) ص ١٩٧، الحميرى: الروض المعطار، ص ١٨٤، المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٣، ص ١٥٤، ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٤٩ م.

(٣) الإدريسي: المصدر السابق (ط. د) ص ١٩٧ - ص ٢٠٢، الزهرى (أبو محمد بن أبى بكر الزهرى): كتاب الجغرافيا ص ١٠١ تحقيق محمد الحاج صادق المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية سنة ١٩٥٨، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤ وكانت أى «المرية» فيما تقدم يصنع بها صنوف آلات النحاس والحديد وما لا يحاد، انظر الحميرى: المصدر السابق ص ١٨٤، انظر المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٤٩، ص ١٦٣ طبعة سنة ١٩٦٨

(٤) عن فترة الانتقال وضرب الروم لمدينة المرية واستيلائهم عليها حتى استردها الموحدون مرة أخرى انظر الباب الأول من الرسالة، كان فتح المرية وعودتها إلى الموحدين بعد احتلال الروم لها بعشر سنوات ٥٥٢ هـ - ١١٥٧ م انظر العمرى: مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٤ مخطوط رقم ٤٣٧٦.

(٥) العمرى: مسالك الأبصار (وصف أفريقيا) ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ١٣٨ طبعة سنة ١٩٤٩ وص ٢٠١ طبعة سنة ١٩٦٨، عن الصناعة المعدنية فى مالقة انظر رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٨٦ ص ١٨٧ باريس سنة ١٩٢٢ م.

والسفن التجارية، فاشتهرت مدينة المرية بصناعة السفن وكانت بها دار لصناعة السفن^(١)، أما مالقة فكانت من أهم ثغور إقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين، حيث أقيمت بها دار لصناعة السفن التجارية إلى جانب السفن الحربية وخاصة الحراريق^(٢)، أما مدينة المنكب فقد أقيمت بها أيضاً دار صناعة لإنشاء السفن^(٣) الحربية والتجارية أيضاً.

ومن الصناعات المعدنية صناعة الحلى

فقد عرف عن نساء غرناطة أنهن كن يتفنن في اقتناء الجواهر والحلى^(٤) بها، وفي ذلك يقول المؤرخ الغرناطى ابن الخطيب: «وقد بلغن «أى نساء غرناطة» من التفنن فى الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات والدياجيات والتماجن فى أشكال الحلى، إلى غاية نسال الله أن يُغضَّ عنهن فيها، عين الدهر^(٥) فكانت نساء غرناطة يتقلدن الجواهر النفيسة لا سيما ما كان مرصعاً بالزمرد والياقوت الذى اشتهرت به مالقة^(٦) كالقلائد

(١) العمرى: مسالك الأبصار «وصف أفريقية والأندلس» ص ٤٦ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٣، ص ١٨٤ عن ثغر المرية انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص ٢٩، الإدريسي: صفة المغرب ص ١٩٧ Ency. of Islam, Art Almeria by Seybold يذكر العذرى: فى كتابه نصوص عن الأندلس «أن دار صناعتها» أى المرية القديمة قد قسمت على قسمين، فالقسم الأول فيه المراكب الحربية والآلة والعدة، والقسم الثانى فيه القيسارية، قد رتب كل صناعة حسب ما يشكل لها، انظر العذرى: صفة مدينة المرية ص ٨٦.

(٢) العمرى: المصدر السابق ص ٤٨، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٨، ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ٢٨٦ هامش ٣، ابن بطوطة: الرحلة ج ٢ ص ١٨٦، ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٢٢ م، ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٣ Ency of Islam, Art malaga (2) الحراريق وتسمى أيضاً الحراقات، ومفردها حراقة وهى نوع من السفن الحربية تستخدم لحمل الأسلحة: محمد ياسين الحموى تاريخ الأسطول العربى ص ٣٤.

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب نشر العبادى ص ١٠٩ حاشية (١) ص ٣٠٠ هامش رقم ٦ الإدريسي: صفة المغرب: ص ١٩٩، البغدادي مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٦٤، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٦.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٣٩، «محمد كمال شبانة يوسف الأول سلطان غرناطة، ص ١٩٧ طبعة سنة ١٩٦٩ ص ١٩٧.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٣٩.

(٦) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٨ طبعة سنة ١٩٤٩.

والأقراط والخواتم المصنوعة من الذهب والفضة^(١) وكانت مهارة الغرناطيين في صناعة الحلى عظيمة^(٢).

الصناعات الزراعية وما يتصل بها

لم يقتصر ازدهار الصناعة في إقليم غرناطة على الصناعات المعدنية فحسب، بل شملت أيضاً الصناعات الزراعية وما يتصل بها من منتجات، هذا وقد شهدت مدن وقرى إقليم غرناطة تطوراً كبيراً في الصناعات الزراعية لم تعهده من قبل حيث تنوعت المحاصيل الزراعية^(٣) في قرى ومدن الإقليم فقامت عدة صناعات هامة منها.

صناعة الملابس والمنسوجات

تقدمت صناعة الحرير في إقليم غرناطة تقدماً كبيراً ولا سيما في مدينة المرية حيث انتشرت صناعة الحرير^(٤) الموشى والديباج^(٥) فتفوقت على قرطبة وأجاد أهلها هذه الصناعة إجادة تامة^(٦).

(١) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، ابن الخطيب: اللوحة البدرية ص ٢٢، الحميري: الروض المعطار ص ٢٣، ياقوت: معجم البلدان ج ٥ مادة غرناطة، ابن غالب فرحة الأنفس ص ٢٨٣ مجلد ١ ج ٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٣٨، ص ١٣٩، محمد كمال شبانة يوسف الأول سلطان غرناطة ص ١٩٨.

(٣) عن المحاصيل الزراعية وتنوعها في إقليم غرناطة انظر «الزراعة».

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة د) ص ١٩٧، ١٩٨، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٤٠، الزهرى: كتاب الجغرافيا ص ١٠٢.

R.b. Serjent: Islamic textiles material for a hisotry up to the Mongol Conquest p. 169.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ج ٥ مادة المرية، ابن غالب: فرحة الأنفس ص ٢٨٤.

Dozy: Dictionaire De "Tailloe des Noms des vetements chez les Arabes Amsterdam 1845 P, 113, 436.

ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٤٠، العمرى: وصف أفريقيا ص ٤٥، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤، المقرئ نفع الطيب ج ١ ص ١٥٣ «الديباج هو قماش من الحرير وهو نوع من الأقمشة الحريرية» كذلك الديباج يدخل في نسجه خيوط الذهب والفضة وهو المعروف باسم بروكار.

(٦) ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ١١٩، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧، العمرى: نفس المصدر ص ٤٥، الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٧ ص ١٩٨ المقرئ: المصدر السابق ص ١٤٥، الحميري: نفس المصدر والصفحة، ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ١٩٣.

وكان بالمرية أعداد كثيرة من الطراز^(١) «فقد بلغت طراز الحرير فيها ثمانمائة طرز^(٢)»
ويصنع بها من أنواع الثياب الكثير مثل الديباج والسقلاطون^(٣) والأصبهاني^(٤) والجرجاني^(٥)
والستور المكلفة والثياب المعينة^(٦) والعتابي^(٧) الفاخر والخمر^(٨).

هذا وكان الإنتاج كثيرا، فقد كان جل أهل المربة صناع نسيج وحياسة^(٩).

وكان الصناع يزبنون إنتاجهم بالصور والزخارف الهندسية فقد زينت قطعة من إنتاج
المربة في إمارة على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) بدوائر بداخلها أسود تفترس وعولا

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٨، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤، العمري: وصف
أفريقية، ص ٤٥، راجع شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ج ١ ص
١١٨، ص ١١٩ «لكلمة طراز معان كثيرة منها الكتابة الرسمية التي كانت تتوج أوراق الدولة أو
تطرز على الأقمشة التي تحتكرها الحكومة، وقد كشفت الأبحاث الأثرية عن وجود نوعين من دور
الطراز: طراز العامة وأغلب الظن أن المقصود به المصانع الأهلية للنسيج، وقد كانت تشرف عليها
الحكومة إشرافاً دقيقاً، وطراز الخاصة وكان ملحفاً بقصر السلطان وعلى رأسه موظف كبير
ويختص عادة بنسج ما يحتاج إليه السلطان وحاشيته، وليس من شك في أن صناعة النسيج كانت
تحتكرها الحكومة» انظر عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس ص ١٢٢
هامش رقم ٥ ولنفس المؤلف أنظر الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية - مطبوعات المتحف
الإسلامي بالقاهرة طبعة سنة ١٩٤٢ ص ١٥، ص ٢١، ص ٢٣، ص ٢٥ ويذكر نفس المؤلف أن
دور الطراز، دخلت الأندلس مع عبد الرحمن الداخل وأن عبد الرحمن الناصر قد عين مملوكه
خلف ناظراً للطراز عبد العزيز مرزوق: نفس المراجع ص ١٢٣.

(٢) الإدريسي: نفس المصدر والصفحة، الحميري: نفس المصدر والصفحة.

(٣) السقلاطون: نوع من المنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها بلاد اليونان ومنها انتقل إلى البلاد
الإسلامية، انظر عبد العزيز مرزوق المرجع السابق ص ١٢٤ Dozy: Diction. op. cit P.P 436
113,

(٤ - ٥) الأصبهاني والجرجاني كلاهما منسوجات حريرية نسبة لأصبهان وجرجان بإيران انظر مرزوق
نفس الصفحة و Dozy: op. cit قد أجادت المربة صناعة هذه الأنواع من الأقمشة.

(٦) هي ما كانت تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو تلك التي تزدان بزخرفة هندسية على هيئة
المعين انظر مرزوق نفس المرجع والصفحة.

(٧) نوع من القماش الحريري أيضا ينسب إلى حى عتاب في بغداد حيث توجد مصانعه

Dozy. opcit. p. 110

(٨) الخمر: متا تغطي به المرأه رأسها، مرزوق: نفس المرجع والصفحة هامش ٣.

(٩) الزهري: كتاب الجغرافيا ص ١٠٢.

صغيرة وحول هذه الدوائر مجموعة من الحيوانات الخرافية^(١) ولما ضرب الروم المرية في فترة الانتقال^(٢).

تفردت مالقة بصناعة الحرير^(٣) في العصر الموحدى «خاصة الموشاة بالذهب والتي كانت تصدر إلى المشرق والمغرب وتباع بأغلى الاسعار وربما تجاوز ثمن انحلة الواحدة الآلاف»^(٤).

أما دلالية^(٥) إحدى قرى إقليم غرناطة فقد اشتهرت بصناعة الحرير^(٦) وكان أهل غرناطة يلبسون نوعاً من الحرير كانت نتجه مدينتنا غرناطة^(٧) وبسطة^(٨) يعرف «بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة»^(٩) ويذكر المؤرخ ليفى بروفنسال فى كتابه محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها: أن نساء غرناطة قد بلغن شأنًا بعيداً فى التطريز بالخياط الذهبية والفضية^(١٠).

إلى جانب المنسوجات الحريرية اشتهرت غرناطة بصناعة المنسوجات الكتانية وكانت

(١) موريتو: الفن الإسلامى فى أسبانيا: انظر صورتها فى كتاب مورينو سالف الذكر ص ٤١٦ شكل ٤٠٧ ووصفها ص ٤١٩.

(٢) الحميرى: الروض المعطار: ص ١٨٤ «يذكر الحميرى ما نصه: وكان الروم قد ملكوها فغيروا محاسنها وسبوا أهلها وخرّبوا ديارها» انظر الحميرى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٤، ابن سعيد: الجغرافيا: ص ١٤٠، حسين مؤنس: الجغرافيا والجغرافيون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص ٥٨٤.

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق ج ١ نفس الصفحة، الجغرافيا نفس الصفحة، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧، ج ٤ ص ٢٠٦ طبعة سنة ١٩٤٩ وطبعة دار صادر ج ٣ ص ٢١٩ - ص ٢٢١، بيروت.

(٥) هى بلد صغيرة تقع غرب المرية فى جنوب سفح جبل غدر Gadr على مقربة من البحر المتوسط، ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٩٨ هامس ٢ قرية بالاندلس من أعمال المرية، انظر الحميرى: الروض المعطار: ص ٧٧.

(٦) ابن لخطيب: مشاهدات ص ٨٢.

(٧) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧، طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ٢٠١ طبعة ١٩٦٨.

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٢٠٢، ابن الخطيب مشاهدات ص ٣١ هامس ٩ الحميرى: الروض المعطار ص ٤٥.

(٩) المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧، نوع من الحرير والقطن معاً انظر

Dozy. Diction op. cit P. 114

(١٠) ليفى بروفنسال: محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ص ٩٢.

غرناطة من أهم المراكز التجارية إنتاجاً لسلكتان وتصديراً له^(١) «فكان هذا الفحص» أى «غرناطة» يربو على كان النيل^(٢).

أما مدينة وادى آش فقد أنتجت أنواعاً جيدة من المنسوجات الحريرية والقطنية^(٣).

صناعة البسط

امتازت الدور العربية بالبسطة التى لا يقتصر استعمالها على فرش أرض الحجرات وإنما يمتد أيضاً إلى فرش المساجد وتزيين الحوائط، فكانت غرناطة وبسطة أهم مدينتين تنتجان هذه البسطة^(٤)، فينسب إلى مدينة بسطة «الوطاء البسطى من الديباج الذى لا يعلم له نظير»^(٥).

هذا وقد عرف الغرناطيون - شأنهم شأن أهل الأندلس - صباغة المنسوجات والصناعات الجلدية وغيرها فاستعمل أهل غرناطة فى صباغتهم النيلة والقرمز والزعفران الذى اشتهرت غرناطة بإنتاجها الوفير منه^(٦)، كذلك بسطة التى اقتصت بإنتاجها الجيد من الزعفران^(٧)، وكذلك مدينة باغة من أعمال غرناطة^(٨)، وكان الحرير عادة يصبغ فى موضع إنتاجه، فقد اشتهرت إحدى قرى مالقة وتدعى نارجة بصباغة الحرير وكان أهلها يقيمون الخيام قرب النهر ويعتبرون ذلك عيداً، فيطلقون حناجرهم بالغناء أثناء العمل فى صبغ الحرير، وقد عرف المكان الذى كانوا يقومون فيه بصباغة الحرير بالطراز^(٩).

(١) الحميرى: المصدر السابق ص ٢٤.

(٢) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٩١، الحميرى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) الحميرى: نفس المصدر ص ١٩٢.

(٤) المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٨٧، طبعة ١٩٤٩، ج ١ ص ٢٠١ طبعة ١٩٦٨.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق: ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٣١ حاشية ٩، الحميرى: الروض المعطار: ص ٤٥.

(٦) المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٤٩، طبعة دار صادر بيروت، ص ١٤٢ طبعة سنة ١٩٤٩.

(٧) الإدريسي: صفة المغرب: ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات: ص ٣١ حاشية ٩، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥ ص ٢٢١.

(٨) الحميرى: المصدر السابق: ص ٦٠، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٩ طبعة سنة ١٩٦٨ م.

(٩) المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٦٦ - ص ٦٧، طبعة سنة ١٩٤٩ القاهرة وطبعة دار صادر، بيروت ج ١ ص ١٧٨.

المطاحن

كانت الأقوات من القمح تطحن فى إقليم غرناطة بالأرحاء التى تديرها المياه أو الحيوانات أو الرياح وقد اتخذ الغرناطيون الأرحاء المائية لكثرة المياه فى إقليم غرناطة^(١)، حتى أن الأرحاء لتتخذ فى غرناطة فى المنازل أو عند مداخلها^(٢) فيذكر ابن الخطيب أن الأرحاء التى تدور فى غرناطة «لأن نظير لها استعداداً وإفادة»^(٣) «ففيها من الأرحاء الطاحنة بالماء على ما نيف على مائة وثلاثين رحي»^(٤).

صناعة الخمور

كانت الخمور تباع فى أسواق المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين^(٥)، على الرغم من محاولة المرابطين منع ذلك فى بداية أمرهم^(٦)، لكن شربها انتشر بين بعض أمراء المرابطين وخاصة سادتهم^(٧)، وكثير من عامتهم^(٨)، وفى ذلك يقول المراكشى:

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق: طبعة (دوزى) ص ٢٠٣، ابن الكردبوس: صلة السمط: ص ١٤٥، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا: ص ١٦٧، الزهرى: كتاب الجغرافيا ص ٩٣، ص ٩٤، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٤، الحميرى: الروض المعطار: ص ٢٣ - ص ٢٤.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٢٦، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٥، الحميرى: الروض المعطار، ص ٢٣، ص ٢٤.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ١١٩.

(٤) ابن الخطيب: نفس المصدر، ص ١٣٣.

(٥) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب: ص ١٧٣، ص ١٧٤ طبعة دار المنصور، المراكشى: المعجب: ص ٢٢٦.

(٦) المراكشى: المصدر السابق ص ٢٢٦، ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص ٥٤، ص ٥٧.

(٧) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ١٢٧، ابن دحية: المطرب فى أشعار المغرب تحقيق إبراهيم الأبيارى القاهرة المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٤ م، ابن عبدون: رسالة فى الحسبة ص ٥٤ يذكر ابن سعيد فى كتابه المغرب ج ٢ ص ١٢٧ «أن الشاعر أبا بكر محمد بن أحمد الأنصارى المشهور بالأبيض من قرية همدان إحدى القرى الكبيرة الداخلة فى نطاق غرناطة قام بهجاء الزبير المثلث أمير المرابطين على قرطبة حيث قال:

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهود كلب النار
ما زال يأخذ مسجدة فى مسجد بين الكئوس ونغم الأوتار
انظر ابن سعيد: المغرب: ج ٢ ص ١٢٧.

(٨) المراكشى: المعجب: ص ٢٤١، ابن عبدون: رسالة فى الحسبة، ص ٥٤، ص ٥٧.

«واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشريير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور»^(١) ولم تبذل الدولة المرابطية جهوداً جدياً لمنع الخمر إلا بعد أن تفاقمت الثورة الموحدية^(٢).

وفي عصر الموحدين أقبل الناس على شراب الرب^(٣) وكان من أكثر شراب المصامدة^(٤).

ويبدو أن الناس أسرفوا في تخميره حتى صار مفعوله مثل الخمر مما دفع الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إصدار رسالة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م يأمر فيها بالكف عن شراب الرب وصانعيه ومدى مطابقتها للشرع^(٥)، وقد جاء فيها «وأمر بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها فيراق مسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامداً، وشربه مدمناً عليه ومعاهداً ولم تردعه الحدود... فيمحي أثره، ويحذف خبره»^(٦).

ولكن الناس استمروا في شراب الرب وزيادة تخميره مما دفع المنصور الموحدى (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) إلى تحريمه نهائياً فأصدر رسالة تحرم الرب «فإن الناس تجوزوا في أمر الرب تجوزاً أغفلوا فيه الاجتهاد، ورتعوا حول حماه أوقعهم فيه أو كاد وتسامحوا فيه تسامحاً خرق المتعارف من المأزون فيه والمعتاد... ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك

(١) المراكشي: المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) ابن القطان: نظم الجمان: ص ٢٢٣، حسين مؤنس «نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين ٥٢٠ هـ - ٥٤٠ هـ مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد سنة ١١٥٥ المجلد الأول، العدد الثالث ص ٦١٣ عن ظهور الموحدين ومراحل ثورتهم على المرابطين، انظر الباب الأول ص ٢٤.

(٣) الرب هو الطبخ الخائر من عصير العنب، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٧١، ص ١٧٢ هامش ١ راجع أنواع الربويات رب السفرجل، رب الرمان، رب التوت، في كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، لمؤلف مجهول ص ٢٥٥.

(٤) مجهول: الاستبصار ص ٢١١ «كان الرب مشتركاً بين المصامدة وكان يباع في مراكش في مكان خاص عرف باسم باب الرب» انظر المصدر السابق نفس الصفحة، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٨٨.

(٥) مجهول: مجموعة رسائل موحدية: ص ١٣٣ الرسالة الثالثة والعشرون.

(٦) مجهول: الرسالة السابقة نفس الصفحة.

ما تقرر... رأينا والله المستعان أن نقطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لدينهم وأجدر واشتدوا في ذلك اشتداداً لا يوسع وأخلوا الحوائث التي كان يباع فيها منه وأفقروها وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيروها، والديار المعروفة ببيعه أيضاً لا تركوها على ذلك ولا تقررها، وأريقوا، ما تلقون من مشتبهه وملتبسه، وعاقبوا من تجدون عند أشد العقوبة على دلسه، وتتبعوا في ذلك أبلغ تتبع وأشدّه، ومن وجدتم عنده رائحة منه كائناً من كان فأقيموا عليه ما رسمه الشرع في ذلك وحده^(١).

كذلك نهى ابن عبدون عن حمل السلاح قبل بداية الشراب في الأعراس^(٢) ويجب أن يؤخذ سلاح الشبان عند إقبالهم عند العرس قبل أن يشربوا وإذا ظفر بالمعربد كتّف وأهبط إلى صاحب المدينة^(٣)

وقد اقتصت مالقة بخمور تصنع من التين والكروم^(٤) فكانت من أهم مراكز إقليم غرناطة إنتاجاً للخمور في غرناطة نفسها.^(٥)

صناعة السكر وتجفيف الفاكهة

تقدمت صناعة السكر في إقليم غرناطة، فقد اشتهرت مدينة المنكب بزراعة قصب السكر وكان يصدر إلى البلاد الأخرى^(٦)، كما انتشرت أيضاً في فحص غرناطة^(٧)

(١) مجهول: مجموعة رسائل موحدية ص ١٦٤ - ص ١٦٧ الرسالة الثامنة والعشرون.

(٢) ابن عبدون: رسالة في الحسبة: ص ٥٥.

(٣) ابن عبدون: المصدر السابق: ص ٥٥.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ١ ص ٤٢٤، ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص ٢٨٦ هامش ٣، القلقشندي: صبح ج ٥ ص ٢١٨ المقرئ: نفع الطيب، ج ٤ - ص ٢٠٥، ص ٢٠٦ طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥١ طبعة ١٩٦٨.

(٥) ابن الخطيب: مخطوط الاسكوريال من الإحاطة لوجه ٢١ - ٢٥.

(٦) البغدادي: مرصدا الاطلاع ج ٣ ص ١٦٤، العمري، وصف أفريقيا ص ٤٦، الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة دوزي) ص ١٩٩، ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ١٠٩ حاشية ١، ص ٣٠٠ حاشية ٦، ياقوت: معجم البلدان ج ٨ مادة منكب، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٦.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ٨٦، ابن الخطيب: اللمحة البدرية: ص ٢٢، الحميري: الروض المعطار: ص ٢٤.

وشلوبين^(١)، كذلك تقدمت صناعة تجفيف الفاكهة في غرناطة تقدمًا ملحوظًا حيث كان فلاحو غرناطة يدخرون العنب سليمًا من الفساد طول العام^(٢)، يقول ابن الخطيب «وفواكههم اليابسة عامة متعددة، يدخرون العنب سليمًا من الفساد إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله^(٣)».

صناعة العطور والأدوية

انتشرت صناعة الأدوية في إقليم غرناطة بفضل الأعشاب الطبية التي كانت متوفرة في جبل شلير^(٤)، يذكر ابن الخطيب «أن جبل شلير مستودع للأدوية والترياقية فهو أحد خزائن الأدوية في إقليم غرناطة^(٥)» ويذكر العمري: «أن بهذا الجبل عقاقير كعقاقير الهند وعشب تستعمل في الأدوية يعرفها الشجارون لا توجد في الهند ولا غيره^(٦)».

واردهرت تلك الصناعة نتيجة لتقدم علم الكيمياء وازدهار الدراسات الطبية^(٧) ويذكر السقطي أن صناعة العقاقير قد بلغت «نحو الثلاثة ألف في العدد والاختراعات لا تنقطع^(٨)»

(١) الإدريسي: المصدر السابق: ص ١٩٩، العمري: وصف أفريقية: ص ٤٦، الحميري: المصدر السابق: ص ١١١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة: ج ١ ص ١٣٧، ابن الخطيب: للمحة البدرية: ص ٤٠.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق: ج ١ نفس الصفحة، ابن الخطيب: للمحة البدرية: نفس الصفحة.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٦، ص ٩٨ للمحة البدرية ص ٢٢، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥، ص ٢١٥ - ص ٢١٦، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٢ طبعة سنة ١٩٤٩ م، ج ١ ص ١٤٨ طبعة سنة ١٩٦٨.

(٥) ابن الخطيب: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) العمري: وصف أفريقية ص ٣٥، القلقشندي: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٥ - ص ٢١٦، ابن الخطيب، المصدر السابق: ج ١ ص ٩٨، للمحة البدرية ص ٢٢ المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٤٢ طبعة سنة ١٩٤٩ م، ص ١٤٨، طبعة سنة ١٩٦٨.

(٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٢، ص ٥٣، محمد المتونى: العلوم والآب والفتون على عصر الموحدين ص ١٢١ تطوان المطبعة المهدية ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م.

(٨) السقطي المالتى: رسالة في الحسبة ص ٤١، الباب السادس: عن العقاقير والعطور المستعملة في المغرب والأندلس انظر مختصر الأدوية مخطوط لمؤلف مجهول الخزانة الملكية الرباط مخطوط رقم ٢٤٣٠، ١٦ ق وما بعدها.

وكان العطارون والصيدالة يقومون بتجهيز تلك الأدوية بناء على تعليمات الأطباء^(١)، هذا وقد اتخذ هؤلاء العطارون والصيدالة دكاكين لهم في الشوارع والأسواق، وخضعت تلك الصناعة لرقابة المحتسب^(٢)، وشأن المحتسب في هذا أن يقدم عليهم في سوقهم من تعلم ثقته ودينه ومعرفته وبصره بالعقار وتميزه واعتناؤه بلقاء الشيوخ العارفين بذلك والأخذ عنهم فيه، وكذلك ثقات التجار المتجولين في البلاد والأطباء العارفين، ويكون قد بلغت به همته أن يطالع أقوال المتقدمين في اختبار ما يوجد من ذلك والكشف عنه إذ توجد لتلك الأشياء أشباه تماثلها في الصفة والنوع وتنافيها في الفعل والمنفعة سوى ما منها^(٣) فكان على المحتسب منع من ليس لديهم الخبرة في صناعة الأدوية من ممارسة هذا العمل^(٤) وهذا وقد نهى المحتسب العطارين والصيدالة من خلط العقار الطيب بالدون، والأشياء الهندية بالبلدية، وبيعها ممن لا يميزها ولا يفرق بينها... وكذلك ينهون عن خلط البذور الردية بالطيبة وبيعها على أنها طيبة، وأن لا يبيعوا شيئاً من العطور إلا مغربلاً^(٥).

الصناعات الفخارية والخزفية

تركزت هذه الصناعات في إقليم غرناطة وتفوقت بعض مدن الإقليم في صناعة الخزف والأواني الفخارية كمالقة^(٦) واندرش^(٧) وبرجة^(٨)، فصنعوا أشكالاً جميلة من المنتجات الضرورية الهامة كأواني المطبخ التي كانت مستعملة في ذلك الوقت^(٩)، وقد اشتهرت مالقة

(١) السقطي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن عيدون: رسالة في الحبة ص ٤٧، ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحبة ص ٨٦، ص ٨٧ المجيلدي: ص ١١٧، ص ١١٨.

(٣) السقطي: رسالة في الحبة ص ٤١.

(٤) موس إقبال: الحبة الملهية في بلاد المغرب ص ١١٠.

(٥) ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص ٨٦.

(٦) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٤، العمري: مسالك الأبحار «وصف أفريقية ص ٤٧، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٤٥ طبعة سنة ١٩٤٩، عبد العزيز مرزوق: الفنون الخزفية في المغرب والاندلس ص ١٠٥، ص ١٠٦.

(٧) الحميري: الروض المعمار ص ٣١.

(٨) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٢٢٨.

(٩) محمد كمال شبانة: يوسف الأول: سلطان غرناطة ص ١٩٢.

بإنتاج نوع جيد من الفخار المذهب العجيب وكان يصدر إلى خارج البلاد^(١)، وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب فيها إلى أقاصى البلاد^(٢) وكانت مالقة تنتج أطباقاً من الخزف ذى البريق المعدنى قوام رخارفها مناطق فيها رسوم نباتية متنوعة^(٣).

وكانت المرية تنتج بعض الأواني الزجاجية^(٤) الرائعة لكن بعد خراب المرية^(٥) انتقلت تلك الصناعة إلى مالقة^(٦) وكانوا ينتجون نوعاً من الزجاج يعرف بالفسيفساء ونوعاً آخر يعرف بالذليجي^(٧) حيث كانوا يستخدمونه فى زخرفة المنازل.

وعلى الرغم من وجود الرخام الذى يستخدم لنفس الغرض فى مالقة إلا أن الأنواع السابقة من الزجاج كانت أرخص منه ثمناً^(٨).

وقد خضعت تلك الصناعات لرقابة المحتسب^(٩) فكان يأمر الفخارين «بتسجيل ترابهم وتطبيبه وأن يقللوا منه فى الرمل»^(١٠) ويمنع الزجاجون عن جعل الأحطاب على مقربة من مكان النار خوفاً لئلا يتخذ النار فيها فتحترق، فتؤذى الناس والجيران^(١١) ولذلك اتخذ فى غرناطة مكان لصناعة الفخار سُمى بريض الفخارين^(١٢).

(١) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٤ العمري: مسالك الأبصار (وصف أفريقية) ص ٤٧، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥ طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٢ طبعة ١٩٦٨.

(٢) العمري: المصدر السابق: ص ٤٧.

(٣) زكى محمد حسن: فنون الإسلام ص ٣٣٣ - ص ٣٣٤.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٧، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤، المقرئ: نفع الطيب: ج ١ ص ١٥٤ سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٦٢ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨.

(٥) عن خراب المرية: فى فترة الانتقال واستيلاء الروم عليها انظر الباب الاول، انظر العمري: مسالك الأبصار مخطوط ج ١٦ قسم ٢ ورقة ٣٢٣.

(٦) ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٤، ابن بطوطة الرحلة ص ٦٧، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٦٧ و ص ١٨٧ طبعة سنة ١٩٤٩ م.

(٧) المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧، ج ١ ص ٢٠٢ طبعة ١٩٦٨، حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون: ص ٢١٦.

(٨) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥ ص ١٨٧، حسين مؤنس: المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٩) ابن عبد الرؤوف: رسالة فى الحسبة ص ١١٢.

(١٠) ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق: نفس الصفحة.

(١١) ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٢) العمري: (وصف أفريقية) ص ٤١.

ولقد أوردت كتب الحسبة أوامر المحتسب للفخارين «بالأ يضعوا حوائجهم فى الطرق خيفة أن تفسد عليهم لتضييقهم الطريق بها فتكون داعية للشر والخصومة»^(١)، وشاع استخدام الأدوات الفخارية حيث زاد الطلب عليها فى صناعة الأواني الخاصة بالأغذية والأطعمة المختلفة فصنعوا القدور وأقداح الوضوء والغلال^(٢).

الصناعات الجلدية

تقدمت صناعة الجلود فى إقليم غرناطة حيث أصبحت غرناطة مركز الدباغة الأساسى بدلاً عن باجة التى اضطرت بها الأمن خلال القرن السادس الهجرى.

وكانت المدايع عادة تقام خارج أسوار المدن^(٣) فكان يوجد بفرناطة مكان خاص بالدباغين عرف باسم باب الدباغين^(٤)، حيث كان الدباغون ينزلون أطراف المدينة على ضفاف الأنهار اتقاء لرائحة صناعتهم^(٥)، هذا وقد ازدهرت صناعة الجلود ولا سيما فى مالقة^(٦)، فصنعت نوعاً من الجلود يسمى السفن وهو خشن غليظ كجلود الماشية يستخدم فى الصناعات الجلدية، فكانوا يصنعون منه الأغشية والأحزمة والمدورات والحقائب والأحذية^(٧).

وقد خضعت هذه الصناعة أيضاً لرقابة المحتسب^(٨) «فلا يباح للدباغ بيع جلد إلا أن

(١) ابن عبد الرؤوف: رسالة فى الحسبة ص ١١١، الجرسفى: رسالة فى الحسبة ص ١٢٤.

(٢) السقطى الملقى: رسالة فى آداب الحسبة، ص ٦٧.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٥ ص ١٤، عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى: ص ٢٢٩ «وكانت كورة باجة من الكور الغربية التى كانت من أعمال أشيلية أيام بنى عباد متخصصة فى دباغة الأديم» المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥١.

(٤) العمرى (وصف أفريقية) ص ٤٠.

(٥) بروفنسال: محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٦.

(٦) العمرى: وصف أفريقية ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٥ ص ٢١٩، ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص ١٥٩.

(٧) العمرى: (وصف أفريقية): ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ٣٥، ابن الخطيب: مشاهدات ص ١٥٩ «حفلت مكتبة الاسكوريال بكثير من أغلقة الكتب المزركشة الجميلة» كمال شبانة: يوسف الأول سلطان غرناطة ص ١٩٢.

(٨) السقطى: ص ٦٣.

يكون قد خرج ماؤه وتحققت في دباغته، ومتى يبس وطوى وتكسر فهو غير جيد الدباغ ويتقد في ذلك لدلالته ومن وجد بعد ذلك فعله أدب ونكل^(١) كما «منع المحتسب صانع النعال من تغليظ حواشي النعل قبل خروزه»^(٢).

وينهى المحتسب «عن خلط جلد العنز مع جلد الضان في قرق^(٣) ولا جراب ومتى وجد ذلك قطع فإنه دلس لا خير فيه»^(٤).

كذلك كان «لا يسمح لصانع الأتراق في عمل قرق إلا أن تتصل حاشيتا جلده خرزاً واحداً في ظهره أو بوصل من الجلد صغير لا يبلغ سعة الظهر ويكون مجموعاً بالخرز لا بالتشبيك، ومتى وجد على غير ذلك فليس بشيء ولا شيء في القرق الآجلد على جلد وبينهما خرقة تغلظه وترقق جانبيه لا بما يدلس به المفسدون من كثرة الغراء والطين وكذلك يجعلون تحت الأطراف لتصلب وتقف وعند اللباس ينكسر ويظهر تدليسه وفساده ويمنع بالجملة بيع الأتراق وخرصتها إلا بعد التبيس العام»^(٥).

(١) السقطي: في أدب الحبة، ص ٦٣.

(٢) ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحبة: ص ١٠٢.

(٣) القرق: كانت تصنع منه الأحفاف، وسمى صانع الخف بالقرق، انظر السقطي: نفس المصدر:

ص ٦٣، ص ٦٤.

(٤) السقطي: نفس المصدر: ص ٦٣.

(٥) السقطي: المصدر السابق: ص ٦٤.

التجارة

شاركت التجارة الداخلية والخارجية في ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الأندلس والمغرب عامة وإقليم غرناطة بصفة خاصة منذ أن تأسست دولة المرابطين ومن جاء بعدهم من خلفاء الموحيدين، وكان لامتداد السلطة السياسية لدولتي المرابطين وخلفائهم الموحيدين من حدود طرابلس شرقاً وصحراء المرابطين جنوباً وبلاد الأندلس شمالاً^(١)، مما أعطى الحركة التجارية بين مدن المغرب ومدن الأندلس نشاطاً لم تعهده من قبل، فقد شجع هذا التجار الذين كانوا يخضعون في هذه المناطق لحكومة واحدة على تنشيط البيع والشراء وتبادل المنتجات والسلع المختلفة، فقد استطاعت دولة المرابطين بعد أن نجحت في التوحيد بين أقاليم المغرب والأندلس أن تقرر الأمن في ربوع البلاد^(٢)، وكذلك شجع الموحدون التجارة وخاصة التجارة الداخلية فنجحوا في إشاعة الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب والأندلس، كما عملوا على حماية التجار وتأمين الطرق وإصلاحها وتجهيزها بصهاريج مملوءة بالماء، كذلك قطعوا جميع المغارم والقبالات والمكوس التي فرضها المرابطون في عهدهم الثاني^(٣)، فحسبوا التجار على المعجىء إلى البلاد^(٤).

(١) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب: ص ١٦٦، ص ١٦٧، ص ١٦٩، ص ٢٠٤، ص ٢١٠، المراكشي: المعجب: ص ٢٢٦، ص ٢٣٤، ص ٢٧٠، ص ٢٨٢، البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٢ طبعة دار المنصور، السلاوي: الاستقصا ج ٢، ص ٥١، ص ٥٤، ص ٦٦، ص ١٢٤، ص ١٣١، ص ١٤١، حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحيدين ص ٢٦٦ عن امتداد السلطة السياسية لدولة المرابطين في المغرب والأندلس انظر محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابطين والموحيدين) القسم الأول ص ٣٦، ص ٥٧، قسم ٢ ص ٦١٧ وما بعدها، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢٨٥، وما بعدها، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي ج ٤ ص ١٢٥ ج ١ سنة ١٩٦٧.

Scott, History of Moorish Empire, Vol 2: 107.

(٢) انظر العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية، وحسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٠٢ وما بعدها.

(٣) عن ذلك انظر العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية من الرسالة، ابن القطان: نظم الجمان ص ١٦٧، مجهول: رسائل موحدية الرسالة الخامسة والسادسة طبعة سنة ١٩٤٩.

(4) Budgett, The Moorish Empire, P.45.

التجارة الداخلية وأهم مسالكها

هذا ولقد تأثرت الطرق التجارية الداخلية لإقليم غرناطة تأثيراً كبيراً بالتغيرات التي طرأت على مراكز الإنتاج الزراعى والصناعى وكثرة السكان أيضاً، والناظر فى الطرق البرية فى البلاد الأندلسية أو إقليم غرناطة خلال عصر المرابطين والموحدين لا يلمح تغييراً فى أوضاع الطرق قبل هذه الفترة أو فى أثنائها، ذلك لأن مدن الأندلس كانت طرقها ممهدة^(١) منذ فترة طويلة، فالمسافر فيها لا يحتاج إلى زاد لتوفره فى جميع المنازل المعروفة^(٢)، يقول ابن الشباط: «هذا طولها (أى الأندلس) إلى الجنوب أربعون يوماً من غلسية إلى المرية، لا يتزود أحدٌ فيها بماء حيث سلك، ولأية قصد لكثرة أنهارها، وعيونها وآبارها: وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مداين، ومن المعاول والقرى ما لا يحصى»^(٣).

وبالرغم من كثرة المرتفعات والأودية، فقد كانت الطرق تربط جميع أرجاء البلاد الأندلسية بعضها البعض^(٤) وأن التغيير الأساسى فى طرق البلاد الأندلسية خلال عصر المرابطين والموحدين إنما هو مقدار استعمال طريق دون آخر اعتماداً على حالة الأمن^(٥).

(١) ابن الشباط: صلة السمط صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص ١٠٠ المجلد الرابع عشر مدريد سنة ١٩٦٧ م - سنة ١٩٦٨.

(٢) ابن الشباط: وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ص ١٠٠، الإدريسي: نزهة المشتاق (ط. د) ص ٢٠٨.

(٣) ابن الشباط: وصف الأندلس المصدر السابق، تحقيق أحمد مختار العبادى ص ١٠٠ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، المجلد الرابع عشر مدريد سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م، ابن الكردبوس تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط (نصان جديان) قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادى، معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧١ ص ١٢٨ «غلسية»† (Galicia) تقع فى شمال غرب الأندلس.

(٤) المصدران السابقان ص ١٠٠، ص ١٠١، ص ١٠٢ طبعة ٢ سنة ١٩٦٧ م، ١٩٦٨ م والمجلد الرابع عشر ص ١٢٨ طبعة ١٩٧١.

(٥) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى، ص ٣١٥.

ولهذا توفرت للبلاد شبكة من الطرق التجارية التي سهلت ربط المدن والمراكز التجارية مما كان له أكبر الأثر في انتعاش التجارة داخل إقليم غرناطة والبلاد الأندلسية.

كانت قرطبة منذ زمن بعيد ملتقى شبكة مواصلات متشابكة^(١) فمن قرطبة كانت تخرج شبكة من الطرق التجارية عددها ستة^(٢) وهي على النحو التالي:

طريق من قرطبة إلى أشبيلية^(٣)، فقادس، فالجزيرة الخضراء ومن أشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب^(٤).

أما الطريق الثاني فيخرج من قرطبة إلى طليطلة^(٥)، فمرقسطة فلاردة^(٦).

والطريق الثالث من قرطبة إلى غرناطة إلى مرسية فبلنسية^(٧)، فطرطوشة فلاردة.

والرابع من قرطبة إلى مالقة^(٨) ماراً بأستجة ثم إلى مرسية^(٩) ثم يلتقى بالسابق.

أما الطريق الخامس فيمضى من قرطبة فسلمنقة فسمورة^(١٠).

(١) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون ص ٢٨٧ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧٦ م - ١٣٨٦ هـ.

(٢) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٨٨.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١١٠ (بين قرطبة وأشبيلية ثلاثة أيام للمسافر ومن الأميال ثمانون) انظر الحميري: الروض المعطار ص ١٨.

(٤) ابن حوقل: المصدر السابق: نفس الصفحة، حسين مؤنس: نفس المرجع والصفحة.

(٥) ابن حوقل: المصدر السابق ص ١١١ (بين طليطلة وقرطبة تسع مراحل، انظر الحميري: الروض المعطار ص ١٣٠، هذا الطريق لم يستطع التجار ارتياده لانعدام الأمن فيه بعد سقوط طليطلة في أيدي نصارى أسبانيا) عن سقوط طليطلة انظر الباب الأول ص ٤٧.

(٦) حسين مؤنس: نفس المرجع ص ٢٨٨ تقع لاردة في ثغر الأندلس الشرقي وهما في شرق مدينة وشقة (انظر الحميري: الروض المعطار ص ١٦٨).

(٧) يذكر ياقوت في كتابه معجم البلدان: أن المسافة بين غرناطة وقرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخاً، انظر ياقوت: معجم البلدان مادة غرناطة، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١١١ بين غرناطة وقرطبة على طريق بجسانة ستة عشر يوماً للمسافر انظر الحميري: الروض المعطار ص ٤٧.

(٨) حسن مؤنس المرجع السابق ص ٢٨٨.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١١١.

(١٠) حسين مؤنس: نفس المرجع ص ٢٨٩.

والطريق السادس من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ماراً بأستجة ومورور وشذونة^(١) هذا بالإضافة إلى طريق يربط قرطبة بالمرية وهذا الطريق يسلكه المسافر في سبعة أيام^(٢).

كذلك ربطت شبكة من الطرق التجارية الداخلية بين مدن إقليم غرناطة، فمدينة وادي آش ارتبطت بغرناطة بطريق تجارى و «هى قرية من غرناطة»^(٣) «كذلك بسطة وهى قرية من وادي آش» «فى شمال شرق غرناطة» وتبعد عنها حوالى ١٣٣ كيلو مترا^(٤)، أما لوشة من أعمال غرناطة أيضاً فكان الطريق بينهما حوالى ٥٥ كيلو متراً، ويذكر المقرئ أن بينهما مرحلة^(٥).

أما مدن إقليم غرناطة الساحلية فقد اتصلت بعدة طرق تربط بينها، فبين المنكب وشلوبانية ستة عشر كيلو مترات^(٦)، أما برشانة من أعمال المرية فقد كانت على بعد ثمانية ميلاً من المرية، وكذلك دلالية كانت تبعد بنحو تسع كيلو مترات^(٧) عن برجة كذلك انتقيرة كانت تبعد عن مالقة بنحو تسعة وخمسين كيلو متراً^(٨).

(١) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون ص عن مورود والمسافة بينهما وبين قرطبة انظر الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٨.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١١١.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق (ط.د) ص ٢٠٢ ابن الخطيب: اللوحة البدرية ص ٢٩: القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٢١، الحميرى: المصدر السابق ص ١٩٢، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٢ طبعة ١٩٤٩، ص ١٤٩ ١٩٦٨ «تقع مدينة وادي آش على بعد ثلاثة وخمسين كيلو متراً شمال شرق غرناطة» المقرئ: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) الإدريسي: المصدر السابق ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات ص ٣١ حاشية ٩، الحميرى: نفس المصدر ص ٤٤.

(٥) ابن الخطيب: اللوحة البدرية ص ٢٨، مشاهدات ص ٩٣ حاشية ٦، المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٤٢ طبعة ١٩٤٩، ص ١٤٨ ١٩٦٨، الحميرى: نفس المصدر ص ١٧٣.

(٦) ابن الخطيب: مشاهدات ص ٨٠ حاشية ٥، الحميرى: نفس المصدر ص ١٣٦ حيث أن بين المنكب وشلوبنة عشرة أميال، ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٣٦ حاشية ١، ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٨١.

(٧) ابن الخطيب مشاهدات ص ٨٢ هامش ١.

(٨) ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٩٤ حاشية ٦.

الأسواق

كانت الأسواق التجارية في إقليم غرناطة محورها للحياة الاقتصادية ولم تختلف أسواق إقليم غرناطة في نظمها عن أسواق البلدان الإسلامية الأخرى، فقد كانت هذه الأسواق ذات نظم وقوانين متشابهة، وأغلبها كان مرتباً ترتيباً حسناً، فمدينة مالقة ذات مبان فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة كثيرة^(١)، وكذلك مدينة وادي آش^(٢) من أعمال غرناطة فهي بلدة «حسنة بديعة حصينة»^(٣) أما بسطة فهي بلدة كثيرة الزرع اختصت بالزعفران ذات أسواق وتجارات عامرة أهلة^(٤) «أما برجة من أعمال مالقة فكانت ذات أسواق وصناعات ويشتغل أهلها بتجارة الحرير»^(٥) أما بليش مالقة فكانت «عامرة أهلة ضخمة الأسواق حولها ضياع كثيرة»^(٦) كذلك احتوت مدينة المنكب على أسواق^(٧) كبيرة كما يذكر المقرئ «أنه لم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية ولا اعظم متاجر وذخائر»^(٨).

كما امتلأت مدينة غرناطة بالأسواق الممتلئة بالسلع المختلفة، ينكر ابن الخطيب أن أسواق غرناطة «قد غصت الدكاكين بالخضر الناعمة، والفواكه الطيبة والتمر المدخرة»^(٩).

- (١) الحميري: الروض المعطار ص ١٨٧، ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠.
- (٢) الحميري: المصدر السابق ص ١٩٢، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٩ طبعة ١٩٤٨ م.
- (٣) الإدريسي: صفة المغرب (نزهة المشتاق) ص ٢٠٢.
- (٤) الإدريسي: المصدر السابق ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات ص ٣١ حاشية ٩، الحميري: نفس المصدر ص ٤٤.
- (٥) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٢٨٨، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٣ طبعة سنة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٠ طبعة ١٩٦٨.
- (٦) ابن سعيد: المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٢، ابن بطوطة: الرحلة ج ٢ ص ١٨٧، ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٧٨ حاشية ٦.
- (٧) الحميري: نفس المصدر ص ١٨٦.
- (٨) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٣ طبعة ١٩٤٩ م، ص ١٦٣ طبعة ١٩٦٨ م.
- (٩) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١١٥، ص ١١٦.

ويذكر عثمان الكعاك أن الأسواق الإسلامية في المغرب والأندلس شأنها شأن باقي الأسواق في العالم الإسلامي، فكل سوق من الأسواق يضم عدة متاجر تتاجر في سلعة واحدة^(١) كسوق العطارين وسوق الفاكهة وسوق النحاسين^(٢)، ومثل قيسارية^(٣) غرناطة وكانت تقع بجوار المسجد الجامع في غرناطة وكانت هذه السوق مخصصة لتجارة الأقمشة وأدوات الترف وكسنت تسمى بالقيسارية^(٤) وكسنت هذه السوق تقع بالقرب من باب الرملة^(٥)، وكذلك كان بقرناطة سوق خاصة بتجارة الرقيق^(٦).

وكانت لبعض هذه الأسواق أيام معينة يعرض فيها التجار بضائعهم فكان هناك أسواق أسبوعية أو نصف أسبوعية في القرى حيث تعرض في هذه الأسواق المنتجات الزراعية والصناعية، كذلك كان يوجد بها تجار المواد الغذائية من جزارين وتجار السمك^(٧) والفاكهة والخضروات والشوائية والقلائية وباعة العجين المقلى مع الجبن والأصناف الجيدة من الأمعاء المحشوة^(٨)، ثم دكاكين بائعي السمن والعسل^(٩) وبائعي اللبن^(١٠) والحناطون وهم بائعو الشعير والقمح والفول والعدس والحمص، وبائعو الملح والخل^(١١).

وكانت لهذه الأسواق آدابها العامة كأن يمنع من اختلاط الرجال بالنساء في أماكن البيع

(١) عثمان الكعاك: الحضارة العربية في البحر المتوسط ص ٦٦.

1) Levi - Provinca l'Esp. Musl. op. cit. p. 188

(٢) عثمان الكعاك: الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط ص ٦٦.

(٣) قيسرية: والجمع قيسار - وهي السوق التجارية العامة انظر

Dozy: Supplement aux dictionnaires Arabes. 2 tomes (Leiden - Paris 1987. 11, p. 432.

(٤) العمرى: وصف أفريقية ص ٣٨ انظر بروفنسال في أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٧.

(٥) العمرى: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ لوحة ٢٠٧، ٢١٢.

(٧) السقطي: رسالة في الحسبة ص ٣٢.

(٨) السقطي: المصدر السابق، ص ٣٢ - ص ٣٩.

(٩) ابن عبد الرؤوف: ص ١٠٥.

(١٠) السقطي: المصدر السابق ص ٦٩، ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص ٩٢.

(١١) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٤٣.

داخل الأسواق^(١) ومنع طرح الأزيال والقاذورات^(٢) وإيقاف الدواب بالخشب والحطب واجتيازها السوق بالشوك^(٣)، فكان يمنع دخول الدواب القيسارية والأسواق ويمنع توقيفها في الطرق الضيقة ومن إرسالها من غير ماسك لها^(٤)، وكان أهل المدينة مسئولين عن تنظيف أسواقهم من القاذورات والطين ونقل تلك الأوساخ إلى خارج البلد^(٥)، وكذلك كان ينهى عن الرش أمام الحوانيت حتى لا ينزلق أحد المارة^(٦).

الرقابة على الأسواق

اتخذت الحكومة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين نظاماً دقيقاً للإشراف على الأسواق والتجار وكان هذا النظام يتمثل في المحتسب.

فعرفت إدارة الأسواق باسم الحسبة^(٧).

وقد عرف المحتسب في بلاد الأندلس والمغرب باسم صاحب السوق^(٨) وصاحب الحسبة^(٩).

وقد استمر هذا الاستعمال في القرن السادس^(١٠) الهجري، ولعبت الحسبة دوراً عظيماً

(١) الطرطوشي: الحوادث والبدع، تحقيق الطالبى ص ٤١ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد مجلد ٤ سنة ١٩٥٦.

(٢) أحمد سعيد (المجيدى) التيسير في أحكام التسمير تحقيق موسى لقبال الجزائر سنة ١٩٧٠ ص ١٠٥، ابن عبد الرؤوف ص ١١٠: رسالة في الحسبة: ابن عبدون: ثلاث رسائل ص ٥٣.

(٣) المجيدى: المرجع السابق ص ١١٠.

(٤) ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص ١١١.

(٥) ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق: ص ١١٠.

(٦) ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة ص ١١١، يحيى بن عمرو: أحكام السوق ص ١٢٦، ص ١٢٧.

(٧) انظر عن استعمالها: ابن الفرضى. بغية الملتبس ص ٣٧٠ ابن الأبار: الحلة السيرة ج ٢ ص ٧٦، التكملة: ج ١ ص ٣٤٢، ابن سعيد المغرب ج ٢ ص ٣١٣.

(٨) يحيى بن عمر: أحكام السوق ص ١٠٨ تحقيق حسين مؤنس وكذلك في المشرق، انظر تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ٦٢.

(٩) تاريخ قضاة الأندلس: ص ٥، ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٢.

(١٠) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٢٠، وما بعدها.

بجانب وظيفتي القضاء والمظالم فى إقرار العدل بين الناس، «فالحسبة كانت من الوظائف الإسلامية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»^(١).

ومن هذا المفهوم شجع المرابطون والموحدون الحسبة بمعناها العام من أمر بمعروف ونهى عن منكر وجهاد فى سبيل الله^(٢).

وكان القاضى يولى محتسب السوق^(٣)، «فوظيفة المحتسب داخله فى عموم ولاية القاضى يولى باختياره»^(٤) وفى بعض الأحيان كان الوالى هو الذى يقوم بتعيين صاحب السوق^(٥)، ويقوم المحتسب بهذه الوظيفة، وليس من حقه أن يتشاغل عنها بغيرها، وهو مأجور عليها براتب يقبضه من بيت المال^(٦).

هذا وقد حدد العلماء الشروط الواجب توافرها فىمن يقوم بوظيفة المحتسب، فيجب أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة حراً عادلاً ذا صرامة وخشونة فى الدين لا يميل ولا يرتشى^(٧)

ولما كانت وظيفة المحتسب ذات طابع دينى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكان عليه أن يدعو الناس إلى قمع الظلم والجور والسعى إلى العدل والتعلق به، فكان

(١) ابن خلدون: المقدمة: طبعة الكشاف بيروت ص ٢٢٥ ومطبعة الشعب ص ٢٠٢، ابن تيمية: الحسبة فى الإسلام ص ٩، ابن بام نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٠، الماوردى: الأحكام السلطانية ص ٢٢٧ - ٢٤٠ طبعة ١٩٦٠ مكتب الحلبي صبحى الصالح: النظم الإسلامية: ص ٢٢٨، ص ٢٢٩.

(٢) ابن القطان: نظم الجمال ص ١٢١، ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ القسم الموحدى (تحقيق هوثى ميراندا ص ٣١).

(٣) ابن سهل: الإعلام بنوازل الأحكام (المعروف بالأحكام الكبرى): مخطوط ورقة (٢) النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص ٥، موسى لقبال: الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربى نشأتها وتطورها ص ٢٧ الطبعة الأولى الجزائر ١٩٧١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٥.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق ص ٢٢٥، يحيى بن عمر: احكام السوق ص ١٠٣، ص ١٠٤.

(٦) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ٢٣١.

(٧) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٦، تحقيق البار العرينى، الماوردى: الأحكام السلطانية ص ٢٤١ سنة ١٩٦٧ مطبعة الحلبي، ابن عبدو: رسالة فى الحسبة ص ٢٠، عطية مشرفة: القضاء فى الإسلام ص ١٧٩.

عليه أن يأمر الناس بإقامة الصلوات الخمس وصلاة الجمعة^(١)، كما ينظر المحتسب في مراعاة الأحكام الشرعية، ويسهر على إقامة الحدود، تمتد سلطته إلى الإشراف على الأسواق^(٢) ومراقبة المعاملات التجارية داخل أسواق الأندلس والمغرب كمراقبة البيع والشراء ومراقبة الموازين والمكاييل، فكان عليه «التأكد من سلامة الوزن»^(٣) وذلك حماية للمستهلك^(٤) كما أن عليه منع الاحتكار^(٥)، كما كان من حقه تحديد أسعار المبيعات ومراقبة من يبيع مبيعات بسعر أعلى^(٦)، فيتفقد اللحوم ويجب على بائعي اللحوم وضع ورقة بسعر ما يبيعونه من اللحوم^(٧)، وعليه مراقبة التجار داخل الأسواق التجارية^(٨)، كما كان عليه أن يتفقد أمورهم وصنائعهم ويمنعهم من تعطيل الناس في حوائجهم^(٩).

وكان صاحب السوق، يعاقب المخالفين داخل الأسواق التجارية للمرة الأولى بالتوبيخ والزجر وفي المرة الثانية بالسجن والوعيد وفي الثالثة بالضرب والتشهير وإن عاد المخالف للمرة الرابعة فيعاقبه بالتكيل ورفع عن سوق المسلمين^(١٠) «وأحياناً نفيه خارج الوطن»^(١١).

-
- (١) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام ص ٩، ص ١٠، ص ١١ دمشق ١٩٦٧.
- (٢) المقدمة: ابن خلدون ص ٢٢٥، حسن إبراهيم: النظم الإسلامية ص ٢٧١، صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص ٣٣٠، أحمد شلبي: السياسة والاقتصاد ص ١٧٠.
- (٣) السقطي: أدب الحسبة ص ٢١، ابن عبدون: ثلاث رسائل ص ٤٣.
- (٤) تدور رسائل كل من السقطي، وابن عبدون والجرسفي وابن عبد الرؤف - كلها من العصر المرابطي والموحدي - حول واجبات المحتسب وسلطاته، انظر ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٢٠، ص ٢١، ص ٤٣، السقطي ص ٢، ص ١٢.
- (٥) السقطي: ص ١١، ص ٣١، ص ٣٤، ابن عبدون ص ٤٢.
- (٦) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٣ - ص ٢٠٤ طبعة سنة ١٩٤٩، ص ٢١٨ ص ٢١٩ طبعة ١٩٦٨.
- (٧) المقرئ: المصدر السابق ص ٢٠٣، ص ٢١٨ طبعة ١٩٦٨.
- (٨) المقرئ: المصدر السابق نفس الصفحة، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٥.
- (٩) السقطي: أدب الحسبة ص ٦٢.
- (١٠) السقطي: في أدب الحسبة ص ٩.
- (١١) الشيزري: نهاية الرتبة ص ١٤.

كما كان من حق المحتسب (صاحب السوق) طرح الشيء المغشوش وإتلافه^(١) ويبدو أن ظاهرة الغش^(٢) في الأسواق نشرت في تلك الفترة وهو ما تؤكدته كتب الحسبة المعاصرة.

كذلك كان على المحتسب أن يشرف على تأمين حراسة الأسواق ونظافتها^(٣). لمافة المأكولات المعروضة ومنع أهل البلاد من بيع ما يؤكل أو يشرب^(٤) حماية لهم من الأمراض، ويضاف إلى هذه الاختصاصات حقه في الإشراف على التعاليم والمعلمين واختيارهم ومنعهم من إيذاء المتعلمين^(٥).

وحتى يؤدي صاحب السوق وظيفته كاملة كان يستعين بالأعوان والغلمان^(٦) لمساعدته في عمله، فكان يختار رجالا يثق فيهم من أهل الأسواق ووجوه أرباب الصنائع ويستظهر بهم على الباقيين حتى يطلعوه على ما خفى من أسرارهم وخبيث تصرفاتهم^(٧)، وما يجلب إلى سوقهم وما تستقر عليه من الأسعار وغير ذلك من الأسباب التي يلزم صاحب السوق معرفتها^(٨).

ولذلك كان الحرفيون والتجار منتظمين في طوائف على رأس كل منها عريف أو

(١) السقطي: المصدر السابق ص ١. ص ١٢، ص ١٣، ص ١٤، ص ١٥، ص ١٦، ص ٢١، ص ٤١، وما بعدها، ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٤١، ص ٤٢، عبد المنعم ماجد: الحضارة الإسلامية ص ٥٦.

(٢) السقطي: أدب الحسبة، ص ١، ص ١٢، ص ١٣، ص ١٤، ص ١٥، ص ١٦، ص ٢١، ص ٤١ وما بعدها، ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٤١، ص ٤٢ عن الغش في الأسواق انظر نوازل ابن رشد (مخطوط رقم ١٠٧٢) عربي (المكتبة الوطنية باريس) ١٠١ ق، البرزلي (أبو القاسم أحمد البلوي) جامع مسائل الحكام مما نزل بالمفتين والحكام مخطوط رقم ٤٨٨٤ الخزانة الملكية الرباط ١٣٨ و ١٣٩ و ص ١٥١.

(٣) ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة ص ١١١.

(٤) ابن عبدون: المصدر السابق ص ٥٠، ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص ٩٣، المجيلدي: التسعير: ٦٥.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٥، المرير: الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٢٢ تطوان سنة ١٩٥٢.

(٦) ابن بسام: نهاية الرتبة ص ١٠، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٥.

(٧) السقطي: نفس المصدر، ص ٩.

(٨) الشيزري: المصدر السابق ص ١١.

أمين^(١) له السلطة عليهم وهو مسئول عن كل ما يحدث مباشرة فى جماعته، فهو الخبير بالجد والردىء من حرفته^(٢)، وكان هؤلاء العرفاء والأعوان بمثابة العيون التى توصل لصاحب السوق الأخبار مما يؤدى إلى بث الرعب والخوف فى قلوب العامة^(٣).

ويبدو أن بعض محتسبى الأسواق تركوا العمل لأعوانهم ولم يراقبهم ولذلك شدد السقطى الملقى على وجوب قيام المحتسب على عمله بنفسه وعدم ترك ذلك لأعوانه^(٤).

وقد استطاع الموحدون ضبط الأسواق وتنظيمها فعهدوا للأمناء بجمع ضرائب أسواقهم^(٥)، فكان المنصور الموحدى يحرص على الاجتماع بأمناء الأسواق مرتين كل شهر لتفقد سيرتهم فى أسواقهم^(٦).

أسعار السلع داخل الأسواق

أسعار السلع كانت غير ثابتة فهى تخضع للحالة الاقتصادية التى تمر بها البلاد عامة أو الأقاليم بصفة خاصة، وفى بعض الأحيان يكثر الإنتاج فيزيد عن الحاجة، فكان يصدر إلى خارج البلاد فتتخفف الأسعار نتيجة لذلك، وتتعرض الأحوال الاقتصادية^(٧).

فى أيام الشدة حين يقل الإنتاج ترتفع الأسعار، مثل ما حدث عندما قلت الأقوات وارتفعت الأسعار فى غرناطة ووادى آش فى حملة ابن رديمير على غرناطة ووادى آش^(٨) سنة ٥١٩ هـ^(٩).

(١) ابن عبدون: ثلاث رسائل ص ٥٣.

(٢) المجيلدى: التسعير ص ٥٦، ابن عبدون رسائل فى الحبة ص ٢٤، ص ٥٧، السقطى: فى أدب الحبة ص ٩، الجرمنفى: رسالة الحبة ص ١٢٥.

(٣) ابن تيمية: الحبة فى الإسلام ص ٩، ص ١٠، ص ١١ طبعة ١٩٦٧.

انظر عبد العزيز سالم: قرطبة فى عصر الخلافة ج ٢ ص ١٣١.

(٤) السقطى: نفس المصدر ص ٩، ص ١٠.

(٥) ابن عبدون: رساله فى الحبة ص ٢٩، ص ٥٣، ص ٥٧، السقطى ص ٣٩، ص ٥٦.

(٦) عبد الواحد المراكشى: المعجب ص ٣٦٢ طبعة سنة ١٩٦٣.

(٧) انظر الصادرات والواردات.

(٨) عن هذه الحملة انظر ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٠٦ - ص ١١٤، ابن عذرى: البيان المغرب ج ٤ ص ٦٩، ص ٧٠، ص ٧١، ص ٧٢، مجهول: الحلل الموشية ص ٩٠ وما بعدها.

(٩) ابن عذارى: المصدر السابق ٦٩، مجهول الحلل الموشية تحقيق عبد القادر رسامة ص ٧٥ -

كما قلَّت الأوقات في إقليم غرناطة في عصر الموحدين أثناء غدر ابن همشك^(١) على غرناطة سنة ٥٥٧ هـ ومحاولة استيلائه عليها من أيدي الموحدين^(٢)، ولكن تميزت الفترة التي نعرض لها برخص الأسعار بصفة عامة فمدينة مالقة كثيرة الفواكه رخيصة الأسعار، يقول المقرئ: «رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير»^(٣) وامتلات أسواقها التجارية بأنواع السلع من شعير وقمح وذرة وأصناف فاكهة^(٤).

كذلك اشتهرت مدينة غرناطة بإنتاجها الوفير من أنواع الفواكه المختلفة^(٥) «قد غصت الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمر المدخرة»^(٦) أما دلالية من أعمال المرية فكانت وافرة الخيرات^(٧) «وكان بالمرية من فواكه واديها الكثير الرخيص»^(٨) هذا ولم ترتفع الأسعار في فترة حكم المرابطين وخلفائهم الموحدين في إقليم غرناطة إلا ما سبق أن ذكرناه، فمثلا كان سعر الجبن في مدينة مالقة ربع جبن بستة عشرة درهما^(٩)، ونصف ربع دقيق بستة دراهم^(١٠) أما كراء الدار فكان في المرية بثلاثة دنائير شهريا^(١١)، كذلك كان ثمن الدابة في غرناطة خمسين مثقالا^(١٢).

(١) سبق التعريف به انظر الباب الأول ص ١٠٤، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨١، ص ١٩٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق ص ١٨١، ص ١١٩٦ م.

(٣) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٢ طبعة ١٩٦٨ م.

(٤) ابن حزم: الرد على ابن النغريلة اليهودي ص ١٧٥، ص ١٧٧.

(٥) العمري: وصف أفريقية ص ٣٦، ص ٣٧، القلقشندى: صحح الأعشى ج ٥ ص ٢١٥، الحميري: الروض المعطار ص ٢٤.

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١١٥ - ص ١١٦.

(٧) ابن الخطيب: مشاهدات ص ٨٢ هامش ١.

(٨) الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤.

(٩) السقطي: في أدب الحسبة ص ٣١.

(١٠) السقطي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١١) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٠ ص ٢٠١ طبعة دار صادر بيروت.

(١٢) الونشريسي: المعيار المغرب ج ٩ ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

تسعير السلع

ومن السماوات البارزة فى غرناطة تسعير السلع مثل القمح والشعير وغيرها من السلع الغذائية الهامة التى يعتمد عليها عامة الناس^(١).

وفى أغلب الاحيان كانت الحكومة سواء فى المغرب أو الأندلس تتدخل لتحديد أسعار السلع بطريقة مناسبة حتى لا يقع فيها ظلم سواء على المستهلك أو التاجر، فكان تسعير السلع الغذائية يتم بالتراضى بين المحتسب والتجار^(٢)، يقول ابن عبد الرؤف «فإن أراد الإمام العدل أن يسعر شيئاً من ذلك فيجمع وجوه أهل السوق ذلك الشيء ويحضر غيرهم، استظهار على صدقهم فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون فإن رأى شططاً فى البيع، نازلهم على ما فيه لهم وللعمامة صلاح وسداد حتى يرتضوا به، ويتعاهد ذلك منهم بعد ذلك فى كل حين، فمن وجد منهم قد زاد فى الثمن، أمره أن يبيع كبيع أصحابه، وإلا أخرجه من السوق وأدبه، وإن أراد واحد منهم أو اثنان أن يبيعوا بأرخص من ذلك، لم يمنع من بيعه، فإن كثر هؤلاء، قيل لمن بقى من أهل السوق: «إما أن يبيعوا كبيع هؤلاء وإلا فارتفعوا» ولا يحل التسعير إلا عن تراض وعلى هذا أجازته، من أجازته ومن أكرهه الناس على التسعير فقد أخطأ^(٣).

وإذا اشترى رجل سلعة بأكثر من ثمنها ثم عرف الثمن الحقيقى فله الرجوع إلى البائع بما بقى له^(٤).

الفنادق

أدى ازدياد النشاط التجارى فى إقليم غرناطة فى عصر المرابطين والموحدين وكثرة عدد التجار الأجانب الواردين على تلك البلاد إلى بناء عدد من الفنادق داخل الأسواق

(١) أحمد سعيد المجيلدى: التسعير فى أحكام التسعير ص ٤٩ طبعة ١٩٧٠.

(٢) ابن عبد الرؤف: رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ص ٨٩.

(٣) ابن عبد الرؤف: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) المجيلدى: المصدر السابق ص ٥٥.

التجارية لمبيت التجار الأجانب وقد انتشرت هذه الفنادق في إقليم غرناطة خاصة في المدن التي اشتهرت بورود التجار الأجانب إليها مثل مدينة المرية^(١) التي ازدحمت بأعداد كثيرة من الفنادق، يقول الحميري: «وتحتوي مدينة المرية على ألف فندق إلا ثلاثين فندقاً»^(٢) وذلك لخدمة التجار الأجانب، يقول الحميري: «وكانت المرية تقصدها مراكب التجار من الأسكندرية والشام»^(٣) وقد جهزت هذه الفنادق لخدمة التجار الغرباء^(٤)، فكانت تقام بجوار الحمامات^(٥) «وغريبها - أي المرية - ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات»^(٦) وفي موضع آخر «كان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف»^(٧) وكان لبعض البلاد الأجنبية ذات الصلة التجارية بإقليم غرناطة منشآت تجارية بها مثل فندق الجنوين^(٨).

ولم تختلف نظم هذه الفنادق عن غيرها من فنادق المدن الإسلامية الأخرى سواء في المغرب أو الأندلس أو المشرق فيذكر جمال سرور أن هذه الفنادق قد زودت بكنيسة ليقيم فيها التجار شعائرهم الدينية وفرن لصناعة الخبز وكان يشرف على الفندق من يسمى بالفندقي.

وكان في هذه الفنادق مكان ليحفظ فيه التجار بضائعهم وتغلق بأقفال رومية الصنع^(٩)،

(١) الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٣، ص ١٥٤، ج ٤ ص ٢٠٦، ج ١ ص ١٦٢، ص ١٦٣ طبعة ١٩٦٨.

(٢) الحميري: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) الحميري: نفس المصدر: ص ١٨٤ «يقول المقرئ: والمرية كانت محط مراكب النصارى» المقرئ: ج ٤ ص ٢٠٦.

(٤) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٠٩ «مثل فندق الجنوين في غرناطة حيث كانت لهم منشآت تجارية بها» انظر:

4) Prescott: History of the reign of Ferdinand and Isabella p. 170 (London 1895).

(٥) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٥٤، ج ١ ص ١٦٣ طبعة ١٩٦٨.

(٦) المقرئ: المصدر السابق ج ١ نفس الصفحة، ج ١ صفحة ١٩٦٣ طبعة ١٩٦٨.

(٧) المقرئ: نفس المصدر ج ١ ص ١٥٢.

8) Prescott. ibd. p. 170.

(9) Heyd, Historie, du commerce., Tom, 11 P.P 430

وقد انتشرت الفنادق في غرناطة فكان بها فندق الجنوبيين^(١)، والفندق الجديد وفندق رائدة وفندق السلطان^(٢).

القياسر

أما القياسر فهي عبارة عن مجموعة من المباني العامة تضم مخازن وحوائيت ومساكن لمبيت التجار وكانت تعرض في داخل القياسر أنواع السلع المختلفة، وقد اشتهرت قيسارية غرناطة ببيع أنواع الحرير وصنوف السلع الفاخرة^(٣)، كذلك كان بمدينة المرية قيسارية «قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها قد أمن فيها التجار بأموالهم وقصد إليها الناس من أقطارهم»^(٤).

وقد ضمت هذه القياسر بعض المساجد، كما كان يعلوها رباح ذات مساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر^(٥)، ويذكر حسن حسنى عبد الوهاب أن الحكومة كانت تقوم ببناء تلك القياسر وتأجيرها لأرباب الحرف والمهن والصناع والتجار مقابل كراء متفق عليه^(٦).

التجارة الخارجية وأهم مسالكها

على الرغم من ازدهار التجارة الداخلية في البلاد الأندلسية والمغربية في عصر المرابطين وخلفائهم الموحديين فلإن التجارة الداخلية قد واجهت صعوبات كثيرة نتيجة لعلاقات المرابطين وخلفائهم الموحديين، فقد واجهت التجارة الخارجية مع بلاد البحر المتوسط صعابًا كثيرة لأن علاقة المرابطين ببلاد البحر المتوسط كانت متوترة بسبب الحروب الطاحنة مع نصارى أسبانيا^(٧).

(1) Presscott: Ibed. P 170.

(٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ٥٧٦، ص ٥٧٧.

(٣) العمري: وصف أفريقية ص ٣٨.

(٤) العذري: نصوص عن الأندلس: ص ٨٦ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٦٥ م.

(٥) المقرئزي: الخطط ج ٢ ص ٨٧، ص ٨٩، جمال سرور المرجع السابق ص ١٦٠.

(٦) حسن حسنى عبد الوهاب: ورفات من الحضارة العربية ص ٧٢، ص ٧٣ ج ٢ رقم ٢.

(٧) عن حروب المرابطين مع نصارى أسبانيا انظر ابن عذارى: البيان ج ٤ ص ٣٣، ص ٣٤، ص ٥٠، ص ٦١ ص ٦٩، ص ٧٩، ص ٨٠، ص ٨١، ص ٨٨، ص ٨٩، ص ٩٠، ص ٩١، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة قسم ٣ المجلد الأول ص ٩٧، ص ١٠١، ابن أبي زرع: =

فكانت التجارة مع أوروبا برآ لا تزدهر إلا في سنوات الهدنة التي كثيراً ما كانت تنقض^(١).

أما مصر الفاطمية، فكانت هي الأخرى على علاقة سيئة بدولة المرابطين وذلك بسبب اعتراف المرابطين بالدولة العباسية^(٢).

وكانت العلاقات بين الأندلس والمغرب وبين صقلية ومدن إيطاليا تتأثر بالأحداث السياسية، وأصبح التنافس بينها على أشده خاصة بعد أن سيطرت المدن الإيطالية على تجارة البحر المتوسط في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)^(٣) فيبدو

= روض القرطاس ص ١٥٢، ص ١٦٠، ص ١٦١، ص ١٦٢، ص ١٦٣، ص ١٦٤، ابن القطان: نظم الجمان ص ٦، ص ٩، ص ١٠، ص ١٣، ص ١٤، ص ١٩٧، ص ٢٠٠، ص ٢١٩، ص ٢٣٣ مجهول، الحلل الموشية ص ٧١، ص ٨٥ ص ٩١ ص ١٣٠، ابن الكردبوس: الاكتفاء ص ١١٠، ص ١١٤، ص ١٢١، السلوى: الاستقصاء ج ٢ ص ٦١، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين: ص ٣٠٧، ص ٣١٣، ص ٣١٤، ص ٣١٦، ص ٣١٩، عنان، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م ص ٦٠، ص ٦٢، ص ٦٤، ص ٦٧، ص ٩٦، ص ١١٩، ص ١٣١، ص ١٣٤، ص ١٣٥، ص ١٤٢، ص ١٤٣، ص ١٤٩، ص ٤٠٦، ص ٥٢٢، ص ٥٢٦، الحجى: التاريخ الأندلسى من الفتح العربى حتى سقوط غرناطة طبعة ١٩٧٦ ص ٤٢٨، يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين، ص ٩، ص ٢٠، ص ٢٢، ص ٢٣، ج ٢ ص ١٠، ص ١١، ص ١٧، ص ١٦٢، ص ٢٣٦، ص ٢٣٧ وما بعدها، أمبرسيوهويس ميرانده، على بن يوسف وأعماله فى الأندلس، مجلة تطوان ص ١٧٢ وما بعدها عدد ٣ ١٩٥٨ - ١٩٠٩، حسين مؤنس: الثغر ص ١١٥، ص ١١٩، ص ١٤١.

(١) ابن عذارى: البيان ج ٤ ص ٩١، ص ٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج ١٠ ص ١١٤ مجهول: الحلل الموشية ص ٢٩، ابن القطان: نجم الجمان، ص ١٠٠، محمد الفتيحي المراكشى: السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي طبعة ١٣٤١ هـ ص ١٥٣، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٩، محمد ولد دادة: مفهوم الملك فى المغرب: بيروت دار الكتاب اللبنانى، القاهرة دار الكتاب المصرى المطبعة الاولى ١٩٧٧ ص ١١٣، أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الأسكندرية الطبعة الاولى ١٩٦٨ ص ١٠٠، ص ١٠١، وما بعدها، راجع كذلك حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٣٥ - ص ٣٦٦، ص ٣٤٣.

(٣) عن قوة المدن الإيطالية وسيطرتها على غربى البحر المتوسط انظر أمارى: المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨٢، ص ٢٨٣ - ص ٢٩٢، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢٢٩ وما بعدها.

أن كلا من المرابطين والمدن الإيطالية كان يترصد للآخر ويتهز كل منهم الفرصة للسيطرة على الجزء الغربى من البحر المتوسط. وقد واتت المرابطين الفرصة حين استجد بهم أبناء عمومتهم الزيريون الصنهاجيون فقام الأسطول المرابطى بغزو سواحل صقلية وإيطاليا^(١) وفى ذلك يقول ابن عذارى «وفى سنة ست عشرة وخمسمائة أغزى أبو عبد الله محمد بن ميمون قائد أسطول على بن يوسف مدينة نوقطرة^(٢) من عمل رجار صاحب صقلية ففتحها وسبى نساءها وأطفالها فيها وكان على ابنه يحيى صاحب المهديّة كتب كتابا الى رجار عندما وقع بينهما وحشة يضمن تهديده فيه بإدخال المثلثين والعرب إلى صقلية فلما كان من غزو أبى عبد الله ما كان لم يشك رجار صاحب صقلية أن السبب الباعث على ذلك والمحرك له صاحب المهديّة، فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة (وأكثر) الاستنصار وأستجاش وحشد كأنما فى ذلك كله لأمره، فمنع السفر إلى سواحل المسلمين والتأم له ما لم يعهد مثله^(٣).

وعلى الرغم من هذا العداء والتوتر فى العلاقات بين المرابطين والمدن الإيطالية وصقلية فقد حاول المرابطون تشجيع التجارة الخارجية معهم، فعقدوا معاهدة تجارية مع المدن الإيطالية، خاصة ييزا وجنوة فى ٥٣١ هـ - ٥٣٢ هـ، (١١٣٧ م - ١١٣٨ م) وتشجيعاً لهم على التجارة مع الدولة المرابطية لم يأخذ المرابطون سوى العشر^(٤) على تجارتهم، كذلك يذكر ابراهيم حركات فى كتابه المغرب عبر التاريخ أن جنوه أنشأت مدرسة لتعليم اللغة العربية حتى يتمكن التجار الجنوبيون من التعامل التجارى مع المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس^(٥) ونتيجة لهذه العلاقات التجارية ازدهرت مدينة المرية وفى ذلك يقول

(١) أمارى: المكتبة الصقلية ص ٢٨٢ - ص ٢٨٣.

(٢) الصحيح بو قطرة انظر التصويب فى أمارى: المكتبة الصقلية ص ٢٨٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٦٦، ص ٦٧، عن ذلك انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ١١٦، وانظر أيضاً أمارى، المكتبة الصقلية ص ٢٨٢، ص ٢٨٣، وانظر، أحمد مختار العبادى، وسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس طبعة ١٩٦٩ ص ٢٤٦، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٢٩ وما بعدها.

(4) Mas - Latrie, 1., Traite de paix et de commerce et documents divers concerent les relations des chretiens avec les arabes de l'Afrique

Septentrionale au moyen - age, Paris 1965, P.P 37 - 49

(٥) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ٣١٦، انظر أيضاً حسن على حسن: الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس ص ٢٨٧.

المقرى: «وبها كان محط مراكب النصارى، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التى تصلح لهم، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع فى أعشارهم، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها، لكونها متوسطة ومتسعة قائمة بالوارد والصادر»^(١).

ومع ضعف المرابطين واشتداد ثورة الموحدين، انتهز نصارى أسبانيا فى فترة الانتقال الفرصة وتحالفوا مع جنوه وبيزا وخربوا المرية^(٢).

وفى العصر الموحدى لم تكن علاقة الموحدين ببلاد المشرق بأحسن حالا من علاقة المرابطين بها، فقد كانت علاقات الموحدين متوترة مع الفاطميين ثم الأيوبيين^(٣) ولكن هذا لم يمنع التجار الأندلسيين والمغاربة من التجارة مع مصر وبلاد المشرق، فمصر - كما يذكر حسن على حسن - كانت فى طريق تداخل الحجاج المسافرة لتأدية فريضة الحج فى كل عام وكانت فى كثير من الأحيان تضم بعض أنواع المتاجر التى تحتاجها المدن الشرقية^(٤).

فكانت السفن التجارية تقوم بنقل المنتجات الأندلسية والمغربية التى تحتاجها بلدان المشرق، فكانت السفن تخرج من ميناء مالقة متجهة إلى مصر والشام والعراق محملة بالبضائع المختلفة كالتين المالى^(٥)، والحلل الموشاة بالذهب^(٦) والملابس الكتانية

(١) المغرب: نفع الطيب: ج ٤ ص ٢٠٦ طبعة ١٩٤٩، ج ٣ ص ٢٢٠ طبعة ١٩٦٨.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٨، المراكشى: المعجب ص ٢٨٠، ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ القسم الموحدى ص ٣٣، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤، ابن الأثير: الكامل فى

التاريخ ج ١١ ص ٢٢٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس ج ٣ ص ١٠٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٦٨ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة سنة ١٩٧٨ - سنة ١٩٧٢.

(٤) حسن على حسن: الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس ص ٢٨٨، ص ٢٨٩، روجيه لوتورنو: فاس فى عصر بنى مرين - ترجمة نقولا زيادة بيروت سنة ١٩٦٧ ص ٥٠.

(٥) العمري: وصف إفريقية ص ٤٨، الحميرى: الروض المعطار ص ١٧٨، المقرى: نفع الطيب ج ٤ ص ٢٠٥ طبعة ١٩٤٩ ج ٣ ص ٢١٩ طبعة ١٩٦٨، ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠.

(٦) ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٣، العمري: (وصف إفريقية) ص ٤٨، المقرى: نفع الطيب ج ١ ص ٢٠١ طبعة دار صادر بيروت ج ١ ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٩.

الرفيعة، وكذلك كانت مالقة تصدر الفخار المذهب العجيب الشكل واللون^(١) والبسط^(٢) من غرناطة وبسطة.

وعلى الرغم من قوة الأسطول الموحدى^(٣) فإنه لم يستطع السيطرة على غرب البحر المتوسط وكانت العلاقات مع المدن الإيطالية رهناً هي الأخرى بالعلاقات السياسية^(٤)، ففي فترة الهدنة أبرم الموحدون اتفاقيات تجارية مع جنوة وبيزا، فأبرمت معاهدة تجارية بين مدينة جنوة ودولة الموحدين سنة ٥٤٨ هـ، ١١٥٣ م ثم فى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ضمنت حرية التجارة لرعاية جنوة براً وبحراً، كما نصت الاتفاقية على تخفيض العشور على تجارة جنوة^(٥)، لكن الموحدين لم يسمحوا لتجار بيزا بالتجارة فى المراسى والموانى الموحدية فى المغرب والأندلس إلا إذا جلب التاجر بضاعة بخمسمائة دينار^(٦) وذلك بسبب أعمال القرصنة التى كان يقوم بها أهل بيزا فى البحر^(٧)، كما عقد الموحدون فى سنة ٥٥٨ هـ ١١٧٤ م مع بيزا معاهدة تجارية أخرى^(٨).

(١) العمرى: نفس المصدر ص ٤٧، ص ٤٨، الفلقشندى: صبح الاعشى ج ٥ ص ٢١٩، الزهرى: كتاب الجغرافيا ص ٩٣، الحميرى: الروض المعطار ص ١٧٨، المقرئ: نفح الطيب ج ٤ ص ١٤٥ طبعة ١٩٦٨.

(٢) الإدريسى: نزهة المشتاق ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات ص ٣١ حاشية ٩ نشر أحمد مختار العبادى، الحميرى: الروض المعطار ص ٤٤، المقرئ: نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١ طبعة دار صادر بيروت، ج ١ ص ١٨٧ طبعة ١٩٤٩.

(5) A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord P. 124.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٥٥، أمارى: المكتبة العربية الصقلية، ص ٤٦١ - ص ٤٦٢.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٣.

(5) Mas - Latrîe, Traite du paix, P.P. 47 - 49, 89.

عن هذه الاتفاقيات انظر مبارك الميلى: تاريخ الجزائر العام فى القديم والحديث ج ٢ مطبعة الجزائر ١٣٥٠ هـ ص ٢٥٠، عبد الرحمن بن محمد الجيلانى: تاريخ الجزائر العام جزءان بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٣٢٠.

(6) Amario, M. I. Diplomi, arabi del archivio, V. I., Firenze, le Monnier, 1863, pp. 11 - 12.

(٧) عن أعمال القرصنة التى قام بها أهل بيزا وشكوى الموحدين من ذلك انظر:

Amario, Diplomi arabi, P.P 8 - 9 - 33 - 35, 41 - 47, 66 - 67.

(8) Mas - Latrîe, op. cit, P. 50

وفى عهد المنصور الموحدى عقد الموحدون اتفاقاً تجارياً مع بيزا سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م أكدوا فيه على عدم نزول تجار بيزا ساحل المرية إلا للضرورة كإصلاح السفن مثلاً والتأكيد على منع القرصنة^(١).

وعلى الرغم من أن مواقف الموحدين السياسية مع أغلب الدول المعاصرة لهم كان يشوبها التوتر فإنهم كانوا يرون ضرورة تشجيع التجارة الخارجية وخاصة مع الدول الإسلامية، فلم يأخذوا من التجار المسلمين الغرباء أية عشور على التجارة^(٢).

وعلى الرغم من موقف دولتي المرابطين والموحدين من التجارة الخارجية عامة فإن هذا لم يمنع ازدهار تلك التجارة وامتلاء الأسواق المغربية والأندلسية عامة وأسواق إقليم غرناطة خاصة، بالبضائع المتنوعة من الشرق والغرب وازدهار الموانئ والمدن الأندلسية كمالقة والمرية وغرناطة وغيرها بسبب التبادل التجارى مع معظم الدول الإسلامية فى المشرق والأوربية فى الغرب، فكان مرسى المرية «تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام»^(٣).

لذلك ازدهمت تلك المدينة بالفنادق لإيواء التجار الغرباء^(٤) فقد كان بها «ألف فندق إلا ثلاثين فندقاً»^(٥).

كذلك اكتسبت مدينة مالقة شهرة واسعة فى تصدير منتجاتها إلى داخل البلاد وخارجها^(٦)، فكان يحمل منها التين واللوز إلى مصر والشام والعراق^(٧) وربما وصل إلى

(١) عن نص هذه المعاهدة انظر: (3) Amario, op. cit, P.P 9 - 12, 22.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، لأبى الحسين محمد بن أحمد، بيروت دار صادر ١٩٥٩ ص ٥٦.

(٣) الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤، المقرئ: نفع الطيب ج١ ص ١٥٤.

(٤) المقرئ: المصدر السابق ج١ ص ١٥٤، ج٤ ص ٢٠٦ ج١ ص ١٦٣، ج٣ ص ٢٢٠ طبعة ١٩٦٩.

(٥) الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٤، المقرئ: نفع الطيب ج١ ص ١٥٤.

(٦) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج١ ص ٤٢٣، القلقشندى: صبح الاعشى ج٥ ص ٢١٩، العمرى (وصف أفريقيا) ص ٤٧، ص ٤٨.

(٧) المقرئ: أزهار الرياض فى أخبار عياض ج١ ص ٤١، المقرئ: نفع الطيب ج١ ص ١٤٥ ج١ ص ١٥٢ طبعة ١٩٦٨، ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ٢٨٦ هامش ٣.

الهند^(١) فاحتوت على أسواق جامعة كثيرة^(٢)، هذا وقد زادت ثروة مالقة بسبب المكوس المفروضة على تجارة الصادر والوارد وخاصة تجارة الرقيق من الخدم المجلوين من أرض الصقالية^(٣).

كذلك صدرت مالقة الفخار المذهب العجيب الذي كان يصدر خارج البلاد^(٤).

أما غرناطة فكانت من أهم المراكز التجارية إنتاجاً للكتان وتصديراً له^(٥).

أما مرسى المنكب فقد ازدهرت التجارة فيه، فكانت المدينة تضم عدداً كبيراً من الأسواق والأرباض مما جعلها مركزاً هاماً لتصدير عدة محاصيل أهمها قصب السكر والموز والزبيب^(٦)، وكذلك مدينة بسطة كانت ذات أسواق وتجارات عامرة أهلة^(٧) أما برجة من أعمال المرية ففيها أسواق وصناعات^(٨) أما بليش مالقة فهي عامرة أهلة ضخمة الأسواق^(٩).

الطرق البحرية

ربطت بين إقليم غرناطة والبلاد المغربية خطوط بحرية تجارية وكانت السفن التجارية تنتقل بصفة دائمة بين سواحل إقليم غرناطة إلى بلاد المشرق والمغرب عبر البحر المتوسط فقد اقتضت صعوبة الاتصال بين مدن الساحل في البلاد الأندلسية برأ^(١٠)، أن يكون طريق

(١) الحميري: الروض المعطار ص ١٧٨.

(٢) الحميري: المصدر السابق ص ١٧٨.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٢٢، ص ٤٢٣.

(٤) العمرى: (وصف أفريقية) ص ٤٧، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، المقرئ: نفع الطيب ج ٣ ص ٢١٩.

(٥) الحميري: الروض المعطار ص ٢٤.

(٦) العمرى: وصف أفريقية ص ٤٧، القلقشندى صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٨.

(٧) الإدريسي: صفة المغرب طبعة (دوزي) ص ٢٠٢، ابن الخطيب: مشاهدات ص ٣١ حاشية ٩، الحميري: الروض المعطار ص ٤٤.

(٨) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٢٢٨، المقرئ ج ٢ ص ١٥٠ طبعة سنة ١٩٦٨: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٣ طبعة ١٩٤٩.

(٩) ابن الخطيب مشاهدات ص ٧٨ حاشية ٦، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٤٢.

(١٠) ابن سعيد: انظر كتاب الجغرافيا ص ١٦٧ فجبل شيلر نظراً لوعورة مسالكه كان لا يستعمل إلا في الصيف حيث لا يفارقه الثلج شتاء، انظر ابن سعيد المصدر السابق ص ١٦٧.

البحر أهم وسيلة فى تجارة بلاد الأندلس عامة وإقليم غرناطة بصفة خاصة وذلك بفضل مجموعة من الموانى الهامة مثل المرية^(١) والمنكب^(٢) ومالقة^(٣) مما أكسب الإقليم أهمية تجارية خاصة، فكانت تلك المراسى تتصل بما يقابلها من مراسى البلاد المغربية ومنها إلى بلاد المشرق وأوروبا، فكانت السفن التجارية تنتقل بصفة دائمة بين سواحل المرية ومالقة والمنكب وبين تنس التى أنشأها بعض البحريين من الأندلسيين^(٤)، وكان هناك خط بحرى تسيير فيه السفن من مالقة متجهة الى نكور فى بلاد المغرب^(٥).

ومن هذه الموانى تنطلق السفن الأندلسية متخذة الطريق البحرى من طرابلس إلى الإسكندرية وبلاد الشام وغيرها من بلدان المشرق^(٦) لا سيما وأن الطريق البرى كان محفوظاً بالمخاطر^(٧).

ولكن فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى كثر استعمال الطريق الذى يمر بالمدن الإيطالية وصقلية ومن صقلية يتفرع الطريق إما إلى الإسكندرية أو إلى عكا^(٨)،

(١) عن المرية انظر: الإدريسي: صفة المغرب (ط.د) ص ١٩٧، ص ١٩٨، الحميرى: الروض المعطار ص ١٨٣ - ص ١٨٥.

(٢) عن المنكب انظر: الإدريسي: المصدر السابق ص ٢٠٢، الحميرى: المصدر السابق ص ١٨٦.

(٣) عن مالقة انظر الإدريسي: نفس المصدر والصفحة، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٤٢٣.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٢.

(٦) عن هذه الموانى واتصالها ببلاد المشرق عن طريق تصدير منتجاتها انظر الإدريسي: نزهة المشتاق

(صفة المغرب) ص ١٩٧، ص ٢٠٠، ابن سعيد: ج ١ ص ٤٢٣، ابن الخطيب: نفاضة الجراب

ص ٢٨٦ هامش ٣، الحميرى: الروض المعطار ص ١٧٧ - ص ١٧٩، ص ١٨٣ - ص ١٨٤، ص

١٨٦، العمري: (وصف أفريقية) ص ٤٧، ص ٤٨، القلقشندى: صبح الاعشى ج ٥ ص ٢١٨،

ص ٢١٩، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥، ص ١٥٤ ص ٢٠٥، ص ٢٠٦، ج ١ ص

١٥٠، ص ١٦٢، ج ٣ ص ٢١٩، ص ٢٢١.

(٧) عن هذين الطريقين انظر الإدريسي: نزهة المشتاق (ط.د) ص ١٢٩، وما بعدها.

(٨) لم تعد صعوبات البلاد الأندلسية والمغربية بعدما كانت فى النصف الاول من القرن السادس

تجلب عن طريقها طرائف الهند والسند والعراق إلى البلاد المغربية والأندلسية عن هذه الطرق

انظر بعضاً عنها فى رحلة ابن جبير ص ٩، ص ٣١٠، ص ٣١٩، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص

٣٨٥، ص ٣٨٨ طبعة دار صادر بيروت.

وربما كان السبب في ذلك أن تجار المغرب أو الأندلس أصبحوا يفضلون طريق عكا على مصر التي كانوا يلقون فيها ضيقاً وعتناً^(١).

الصادرات والواردات

من خلال دراسة الصادرات والواردات لإقليم غرناطة نستطيع أن نقول إن الصادرات والواردات تمثل محاولة لسد حاجة البلاد بتصدير الفائض واستيراد الناقص وعلى هذا تنوعت صادرات إقليم غرناطة وتعددت، إذ صار الإقليم يصدر بعض حاصلاته الزراعية وما يصنع منها وبعض من ثرواته المعدنية المصنعة وغير المصنعة، وفي نفس الوقت استوردت البلاد بعض ما كان يلزمها من المواد الخام المصنعة وغير المصنعة، ومن أهم صادرات إقليم غرناطة:

المعادن

صدرت غرناطة إلى بلاد الأندلس والمغرب وغيرها من البلدان الذهب^(٢) والفضة والحديد والرصاص والنحاس والتوتيا^(٣)، ومن أشهر المدن الأندلسية استيراداً لمعدن الذهب والتوتيا^(٤) قرطبة حيث يصلها خاماً ليصنع بها^(٥).

أما مالقة فقد صدرت الياقوت الأحمر من ناحية حصن منت ميور^(٦) كذلك صدرت مدينة المرية حصى ملون يشبه الدر في رونقه وله ألوان عجيبة، فكان يتخذ للزخرف والزينة^(٧)، وصدّرت المرية إلى البلاد الأندلسية والمغربية ومعظم بلاد المشرق آلات

(١) عندما وصل ابن جبير إلى عيذاب اقتنع أن طريق عكا هو الأفضل انظر رحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج ٤ مادة غرناطة، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٦٧ .

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، اللوحة البدرية ص ٢٢، الحميري: الروض المعطار ص ٢٤ .

(٤) ابن غالب: فرحة الأنفس: ص ٢٨٣ .

(٥) ابن غالب: المصدر السابق ص ٢٨٣ .

(٦) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٣٨ طبعة ١٩٤٩ «استخدم هذا الياقوت في صناعة الحلوى من

الجواهر والذهب انظر Scott: Hist. of the Moorish Empire. Vol 111. p. 628.

(٧) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٣٨ طبعة ١٩٤٩ ص ٢٠٢ طبعة دار صادر - بيروت.

الحروب من التروس والرماح والسروج واللجم والدروع^(١)، بالإضافة إلى آلات الحديد من آلات العروس^(٢)، كذلك صدرت مدينة مالقة الآلات المصنوعة من الحديد مثل المقصات والسكاكين والآلات اللازمة لمختلف الأغراض اليومية وكذلك التروس والرماح والدروع والسيوف^(٣).

الفاكهة

واشتهرت مدن إقليم غرناطة بالإنتاج الوفير من أنواع الفاكهة المختلفة، فصدرت نوعاً من الكمثرى «وزن الحبة الواحدة رطل أندلسي ولها مذاق عجيب حيث كان يزرع في جبل شليير»^(٤) أما مالقة فصدرت الرمان المرسى والياقوتى وكذلك التين الملقى واللوز^(٥)، فكان يصدر إلى داخل البلاد وخارجها^(٦) فيحمل إلى مصر والشام والعراق^(٧) وإلى بلاد

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق طبعة (د) ص ١٩٧، المقرئ: نفس المصدر ج ١ ص ١٥٤ طبعة ١٩٤٩، ج ١ ص ٢٠٢ طبعة دار صادر بيروت.

(٢) الإدريسي: المصدر السابق نفس الصفحة، عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية ص ١٧١.

(٣) العمرى: (وصف أفريقية) ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، ابن الخطيب: نقاضة الجراب ص ٢٨٦ هامش ٣.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة د) ص ٢٠١ عن فاكهة جبل شليير في غرناطة انظر: ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٦٧، ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٩٨، وما بعدها، اللوحة البدرية ص ٢٢ وما بعدها، الحميري: الروض المعطار ص ١١٢.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة د) ص ٢٠٠، العمرى: (وصف أفريقية) ص ٤٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩، ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٣، ص ٤٢٤، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٨، ج ١ ص ١٥٠ - ص ١٥٥.

(٦) ابن سعيد: الجغرافيا ص ١٤، المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٣، الإدريسي: نزهة المشتاق (ط. د) ص ٢٠٠، ص ٢٠٤، الزهرى: كتاب الجغرافيا ص ٩٣، القلقشندى صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٩ «يذكر ابن سعيد في كتابه الجغرافيا أن مالقة صدرت هذه الفواكه إلى الهند أيضاً، انظر المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٠، ص ١٥٥ طبعة ١٩٦٨، العمرى: وصف أفريقية ص ٤٧، ابن سعيد: نزهة الأناظر ص ١٤.

(٧) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٤٠، الحميري: الروض المعطار ص ١٧٨، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥ طبعة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٠ - ص ١٥٥ طبعة ١٩٦٨.

الهند أيضاً^(١)، أما الزبيب والموز وقصب السكر فكان أهم صادرات ثغر المنكب^(٢)، كذلك صدرت البيرة من أعمال غرناطة الموز وقصب السكر^(٣) وكانت هذه الفاكهة تباع في أسواق بلاد المغرب^(٤).

المصنوعات الذهبية والجلدية.

ومن الصناعات التي اشتهرت بها مدينة مالقة «صناعة الفخار المذهب العجيب وكان يصدر إلى خارج البلاد»^(٥) بالإضافة إلى المصنوعات الجلدية المصنوعة من نوع من الجلود يسمى السفن، وهو خشن كجلود الماشية، فكانوا يصنعون منه الأغشية والأحزمة والمدورات والحقائب والأحزمة^(٦).

المسوجات الحريرية والكتانية

ومن أشهر صادرات إقليم غرناطة المسوجات الحريرية والكتانية، إذ صدرت مدينة المرية المسوجات^(٧) الحريرية من الدياج والسقلاطوني والأصبهاني والجرجاني والستور المكلفة والثياب المعينة والعتابي^(٨) الفاخر فكثرت الطرز بالمرية^(٩) فبلغت طرز الحرير فيها

(١) يذكر المقرئ أن مالقة صدرت هذه الفواكه إلى الهند أيضا انظر المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤، ص ١٤٥، ج ١ ص ١٥٠ - ص ١٥٥ طبعة سنة ١٩٦٨.

(٢) العمرى: وصف أفريقية ص ٤٧، القلقشندي: صبح الاعشى ج ٥ ص ٢١٨، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٦، ابن الخطيب: نفاضة الجراب ص ١٠٩ حاشية ١، ص ٣٠ حاشية ٦، الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٩، ياقوت: معجم البلدان مادة منكب، البغدادي: مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٦٤.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٠٢، الحميري: الروض المعطار ص ٢٤.

(٤) ابن سعيد: نزهة الأنظار ص ١٤، العمرى: مسالك الأبصار (وصف أفريقية) ص ٤٧، القلقشندي: نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٩.

(٥) العمرى: المصدر السابق ص ٤٧، القلقشندي نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٩.

(٦) الاضطخري: المسالك والممالك ص ٣٥، العمرى: نفس المصدر ص ٤٨، القلقشندي: نفس المصدر ج ٥ ص ٢١٩.

(٧) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٦، ص ١٨٧ طبعة ١٩٤٩ وطبعة بيروت ج ١ ص ٢٠١، ج ٣ ص ٢١٩ - ص ٢٢١، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤، ابن سعيد كتاب الجغرافية ص ١٤٠.

(٨) عن هذه المسوجات وتعريف أنواعها انظر فصل الصناعة ص؟ من الرسالة.

(٩) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١٩٧، ص ١٩٨، ابن غالب: فرحة الأنفس ص ٢٨٣، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٤.

فى عصر المرابطين ثمانمائة طراز^(١)، كذلك صدرت مدينة مالقة المنسوجات المصنوعة من الحرير الموشاة بالذهب^(٢) والتي كانت تصدر إلى بلاد المشرق والمغرب وتباع بأعلى الأسعار «وربما تجاوز ثمن الحلة الواحدة الآلاف»^(٣) أما مدينة غرناطة فقد حازت شهرة واسعة فى تصدير نوع من الحرير كانت تنتجه المدينة يسمى بالملبد المختم ويمتاز بألوانه العجيبة حيث كان يصدر إلى خارج البلاد^(٤) «فيعم الآفاق»^(٥).

واشتهرت مدينة غرناطة أيضا بإنتاج الكتان وتصديره فكانت من أهم مراكز التجارة «إنتاجا للكتان وتصديرا له»^(٦) «فكتان غرناطة يربو على كتان النيل»^(٧).

أما الحرير الخام فقد صدرت غرناطة منه إلى مدينة فلورنسة فى إيطاليا كميات كبيرة^(٨)، كذلك اشتهرت مدينة برجة بإنتاج الحرير والاتجار فيه^(٩) كذلك صدرت قرية ولاية إحدى قرى ثغر المرية الحرير أيضا^(١٠).

(١) الحميرى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٤، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص ١٤٠، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٨٦، ص ١٨٧ طبعة ١٩٤٩، ج ٤ ص ٢٠٦، ج ٣ ص ٢١٩ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨.

(٣) المقرئ: النفع ج ٣، ص ٢١٩ طبعة سنة ١٩٤٩، ص ٢٠١ ج ١ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨.

(٤) المقرئ: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧، الملبد نوع من الحرير كان يصنع فى غرناطة انظر Dozy, Diction. p. 114.

(٥) الحميرى: الروض المعطار ص ٤.

(٦) مجهول: الحلل الموشية ص ٩١ تحقيق عبد القادر رامامة، الحميرى: نفس المصدر ص ٢٤.

(٧) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٩٢، الزهرى: كتاب الجغرافيا ص ٩٦ «حاشية ص ٢٤٩» الحميرى: الروض المعطار ص ٢٤.

(8) Prescott. op. cit p. 170.

(٩) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ٢٢٨، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٤٣ طبعة ١٩٤٩، ج ١ ص ١٥٠ طبعة سنة ١٩٦٨.

(١٠) ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص ٨٢ هامش (١).

الواردات

وكان من أهم الواردات التي تصل إلى إقليم غرناطة القمح إذ كان من أهم واردات مدينة المرية «إذ ترد الحنطة إلى المرية من بر العدو»^(١) أما مالقة فقد استوردت التمر المجلوب من بلاد المغرب وخاصة فاس وتنس^(٢)، أما الزيت فكان يأتي إقليم غرناطة عن طريق ميناء المرية ومالقة من سفاقس^(٣)، أما جلد النمر فكان يجلب إلى إقليم غرناطة من الجزيرة الخضراء عن طريق ميناء مالقة^(٤)، كذلك صدرت بلاد المغرب إلى غرناطة المنسوجات الصوفية^(٥) المرتفعة الأثمان.

هذا وقد زادت ثروة مالقة بسبب المكوس المفروضة على تجارة الصادر والوارد وخاصة تجارة الرقيق من الخدم المجلوبين من أرض الصقالية والسودان^(٦).

هذا وقد لعبت الظروف السياسية دوراً هاماً في منع التبادل التجاري بين بلاد المغرب وإقليم غرناطة وذلك عندما امتنعت مدينة مالقة عن الدخول في طاعة الدولة الموحدية،

(١) العمري: وصف أفريقية ص ٤٦، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧ كذلك صدرت بلاد المغرب وخاصة سواحل تلمسان والسهول الغربية القمح إلى البلاد الأندلسية عبر ميناء المرية، انظر الإدريسي: نزهة المشتاق طبعة دوزي ص ٧١، ص ٧٣ - ص ٧٤، ص ٨٠، ص ٨٣، ص ١٠٠، الاستبصار: تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ص؟ التادلي (أبو يعقوب يوسف بن يس بن عيسى): الثشوف إلى رجال التصوف ص؟.

(٢) «حيث يذكر المقرئ أن التمر معدوم في البلاد الأندلسية» المقرئ: فحح الطيب ج ١ ص ١٦٦.

(٣) البكري: ص ٢٠، ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٣.

البكري: أبو عبيد بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب تحقيق دي سيلان ط ٢ باريس ص ٢٠، كذلك كان الزيت يأتي إلى إقليم غرناطة من أشبيلية أيضاً خاصة في العصر الموحدى انظر الإدريسي: نزهة المشتاق (ط.د) المقرئ: فحح الطيب ج ١ ص ١٥٨ طبعة ١٩٦٧ تحقيق إحسان عباس.

(٤) العذري: جغرافيا الأندلس ص ٢٠، ص ١ تحقيق عبد العزيز الأهواني مدريد ١٩٦٥ معهد الدراسات الإسلامية مدريد.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق (طبعة دوزي) ص ١٢٥، الزهري: كتاب الجغرافيا ص ١٠٨، ص ١٠٩.

(٦) الإدريسي: المصدر السابق ص ٦، مجهول: الاستبصار ص ٢١٥، ص ٢١٦.

فاتخذ الخليفة عبد المؤمن بن علي قراره بمنع التبادل التجاري مع مالقة وقطع العلاقات التجارية بين بلاد المغرب ومالقة^(١)، وظلت تلك العلاقات مقطوعة بين بلاد المغرب ومالقة إلى أن دخلت في طاعة الموحدين ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م.

(١) مجهول: مجموعة رسائل موحدية ص ١٠، ص ١١ تحقيق ليفي بروفنسال.

النظام المالي

السياسة المالية المتغيرة

كان للنظام المالي دور بارز في استقرار الحياة الاقتصادية ورفع مستوى الإنتاج في إقليم غرناطة.

وقد حرص المرابطون في أول الأمر على تنظيم الشؤون المالية ومن الخطوات الأولى للمرابطيين في هذا الشأن بناء يوسف بن تاشفين قسبة صغيرة لخزن الأموال والسلاح بمراكش^(١).

ومع اتساع رقعة الدولة المرابطية واتساع أعمالها، عمل يوسف بن تاشفين على تنظيم الدواوين^(٢) «فدون يوسف الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد»^(٣) هذا وقد التزم المرابطون في بدء عهدهم «بأحكام الشرع ولم يفرضوا إلا ما جاء به الكتاب والسنة»^(٤) وألغوا ما عدا ذلك من الضرائب^(٥).

فعندما دخل يوسف بن تاشفين غرناطة «أمر بكتب الصكوك ورفع القبالات والخراج إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع»^(٦).

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الثاني ص ٥٤٦ الطبعة الثانية طبعة دار، ص ٣٤٣ طبعة حجر فاس سنة ١٢٠٩ هـ المنصور للطباعة والوراقة، الرباط سنة ١٩٧٤ م، ابن عذارى ج ٤.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣.

(٣) ابن عذارى: نفس المصدر ج ٤ نفس الصفحة.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٣٧، انظر البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٦٤، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطيين ص ٤٠٤ - ص ٤٠٨، ص ٤٠٩.

(٥) عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله ص ٢١٠ تحقيق ليفي بروفنسال ١٩٥٥

Lane - Poole - The Moorish Spain P. 179

G. F.P. Hopkins, Medieval Muslim, p. 41.

حسن أحمد محمود: المرجع السابق نفس الصفحات.

(٦) عبد الله بن بلقين: المصدر السابق ص ٢١٠ «وهي الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين» انظر ابن أبي زرع الأنيس المطرب ص ١٣٧ طبعة دار المنصور، عبد الله بن بلقين: المصدر ص ١٢٧، عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطيين والموحدين القسم الأول ص ٤١٠.

فقبل مجيء المرابطين كانت بلاد الأندلس تحفل بأنواع عديدة من الضرائب الجائرة^(١)، فكان ملوك الطوائف في البلاد الأندلسية يفرضون على الناس المعونة^(٢)، وفي ذلك يقول ابن حزم «فإنما هي جزية على رهوس المسلمين بالقطيع ويؤدونها مشاهرة وضرية على أموالهم»^(٣).

ويذكر حسن أحمد محمود أن هذه الضرائب كانت وقتية يفرضها العامل متى شاء^(٤)، كذلك كانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم^(٥). هذا بالإضافة إلى القبالات^(٦) التي كانت شر أنواع الضرائب وكان المتقبل شر جياة الناس^(٧).

(١) عبد الله بن بلقين: التبيان ص ٧٦، ص ٧٧، ابن حزم: الرد على ابن النغيلة ص ١٧٣، ص ١٧٦.
 (٢) المعونة: هي في الأصل ضريبة يفرضها الأمير على رعاياه للقيام بواجب الجهاد إذا كان بيت المال خالياً من الأموال، انظر ابن حزم: الرد على ابن النغيلة ص ١٧٦، انظر عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي ص ١٦٨، حسن أحمد محمود قيام: دولة المرابطين ص ٤٠٨، هذا وقد أوكل ملوك الطوائف جباية الضرائب الجائرة هذه إلى أهل الذمة من النصراني واليهود الذين تسفوا في جباية الضرائب «انظر ابن الكردبوس الاكتفاء» حيث يذكر أن ملوك الطوائف أوكلوا أمور المسلمين إلى اليهود، فعاثوا فيها عيث الأسود «الاكتفاء ص ٧٨، وخاصة في غرناطة حيث ظلموا وتسلبوا على الرعايا من المسلمين أهل غرناطة، ابن بسام» انظر الذخيرة ق ٢ ج ١ ص ٢٧٨ وما بعدها، ابن عذارى البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ ص ٢٦٤، ابن سعيد: ج ٢ ص ١١٤، عبد الله بن بلقين: نفس المصدر ص ٥٤، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، طبعة ليفي بروفنسال ص ٢٣، ص ٢٣٠، المقرئ: فتح الطيب ج ٤ ص ٣٢٢.

(٣) ابن حزم: نفس المصدر ص ١٧٦.

(٤) عبد الله بن بلقين ص ٧٦ - ص ٧٧، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٠٨.

(٥) «كان المكس يستعمل كضريبة على التجارة وكانت مثل هذه المكوس يتضرر منها الفلاحون حيث كان إنتاجهم يباع في الأسواق» انظر ابن خلدون: العبر ج ١ ص ٢٧٩.

(٦) القبالة: هي في الأصل ضريبة تدفع لبيت المال وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على القبالات الزائدة على ما يقضى به الشرع وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو الرئيسية، انظر ابن القطان، نظم الجمال: تحقيق محمود على مكى ص ١٥٦.

(٧) «كان ملوك الطوائف يفرضون قبالات على كل ما يباع في الأسواق ويشتطون في جمعها حتى ضاق الناس ذرعاً بهذه القبالات (الضرائب)» انظر ابن حزم: الرد على ابن النغيلة ص ١٧٦، ص ١٧٧، ولذلك اعتبر ابن عبدون المتقبلين شر جياة الناس، انظر ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص

فلما فتح المرابطون الأندلس أبطلوا كافة المكوس المفروضة على التجارة الصادرة والواردة وكذلك القبالات المفروضة على الأسواق داخل المدن الأندلسية^(١) يقول ابن أبي زرع «ولم يجر في عملهم طوال أيامهم (أي المرابطين) رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية أو حاضرة ولم يكن في عمل بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا توظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشور»^(٢)

وبذلك التزم المرابطون بحكم الشرع فأخذوا الزكاة والعشر وخمس الغنائم وجزية أهل الذمة^(٣).

غير أن هذه الضرائب الشرعية لم تعد تفي بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس، خصوصاً في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، فقد احتدمت معركة الجهاد في الأندلس^(٤) وتفجرت ثورة ابن تومرت^(٥)، واضطرت الدولة إلى التصدي لهذه الثورات

(١) ابن القاضي: جزوة الاقتباس ص ٣٤٢، المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٠٨ طبعة ١٩٤٩ عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١١٩ - ص ١٢٠، ص ٣٤٠ - ص ٣٤١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيب المطرب ص ١٦٧ «العشر - هو زكاة المحاصيل والثمار» عن ذلك انظر الوشرشي: المعيار المغرب ج ٥ ص ٢١٣، ج ٧ ص ٤٥.

(٣) ابن القاضي: جزوة الاقتباس ص ٣٤٢، عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٢٧، الكبرى: المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص ١٦٤، عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٢٠.

(٤) ابن عذارى: التبيان المغرب ج ٤ ص ٥٢، يذكر ابن عذارى «وفي سنة ثلاثة وخمسمائة تحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من مراكش إلى الأندلس برسم الغزو والجهاد وفتح مدينة طليبة وذلك أنه لما تمهدت المملكة لعلي بن يوسف ببلاد المغرب، تحرك إلى الأندلس فأجار البحر ويتم أغرناطة وتلوم بها ريشما أجازت العساكر العدوية والحشود والمطوعات وتاهت الجيوش الأندلسية» ابن عذارى: نفس الجزء والصفحة: انظر أيضا بن القطان: نظم الجمان ص ١٣ وما بعدها، السلاوي: الاستقصا ٣ ص ٦٦، ص ١٠٩ - ص ١١٣.

المراكشي: المعجب ص ٢٣٥، عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية ص ٩١ سنة ١٩٦٩، المغرب الكبير ص ٧٤١.

(٥) ابن أبي زرع: نفس المصدر ص ١٦٥، ص ١٦٦، ص ١٦٧، ابن عذارى: نفس المصدر: ج ٤ ص ١٠٣.

بالإضافة إلى أعمال البناء والتعمير التي قام بها المرابطون مما استلزم كثيرا من الأموال^(١)، فيذكر ابن عذارى في أخبار عام ٥١٩ هـ أنه «صدر حد في التعيب البلد «أى غرناطة» وقلد ذلك من وقع الاتفاق عليه من قاضى القطر أبى القاسم بن ورد وصاحب المستخلص أبى على بن هدية وقدم لقبض المعتب رجل من بنى نجبة لم يكن من الحزمة ولا من الخدمة فمزق المال كل ممزق، وعاش فيها كل ممزق، وزم يناله جميع البنائين، وشد على الناس فى دفع المال، فكانت الآلات متمكنة والموردة متصلة»^(٢) هذا بالإضافة إلى تقلص أراضي الدولة من الملكيات العامة^(٣)، ثم عيشة الترف التي بدأت تدب فى حياة الدولة المرابطية^(٤)، فممنذ واقعة أقليمش (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) قلت غنائم المرابطين واشتدت سيطرة النساء المرابطيات على الأموال^(٥)، يقول المراكشى «واستولت النساء على الأموال وأسندت إليهم (كذا) الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد شرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور»^(٦) فقلت العجباية وكثرت الضرائب على الشعبين المغربى والأندلسى فى كلتا العدوتين^(٧)، يقول ابن عذارى: «وكان على بن يوسف فى آخر أمره امتنع الأعداء لأجناده حتى رجع أكثرهم يكرون دوابهم»^(٨).

-
- (١) ابن عذارى: البيان ج ٤ ص ٧٧، ابن المؤقت: السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤، انظر محمد الشطيبى المغربى: كتاب الجمال فى أخبار الزمان ورقة ٢١٠ مخطوط رقم ١٤١٦ دار الكتب المصرية، انظر ابن القطان نظم الجمال ص ١٩١، شعيرة: المرابطون ص ١٥٢.
- (٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣، انظر عن زيادة نفقات البناء والتعمير فى عهد المرابطين، ابن المؤقت: السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤، انظر محمد الشطيبى: كتاب الجمال فى أخبار الزمان ورقة ٢١٠ مخطوط دار الكتب المصرية.
- (٣) عن تقلص أراضي الدولة من الملكيات العامة انظر فصل الزراعة من الرسالة.
- (٤) ابن أبى رزق: الأيس المطرب ص ١٦٧ «كانت أيامهم أيام دعة ورفاهية» المصدر السابق، نفسى الصفحة، انظر أيضاً احسان عباس: الجانب السياسى من رحلة ابن العربى إلى المشرق «مجلة الأبحاث: الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٦٣ ج ١٦ ص ٣٢٠، انظر أيضا جوليان: تاريخ أفريقية ص ٧٥ ترجمة طلعت عوض، على محمود: تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى ص ٢٨٤.
- (٥) المراكشى: المعجب، ص ٢٤١.
- (٦) المراكشى: نفس المصدر والصفحة.
- (٧) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ طبعة تطوان ص ١٣.
- (٨) ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٢.

فلما قامت الدولة الموحدية، حرص الخليفة عبد المؤمن بن علي في أول الأمر على إلغاء الرسوم والضرائب التي تخالف الشرع والتي فرضها المرابطون^(١) «وفرضوا على الناس ما لم يوجبه الشرع»^(٢)

وصدرت الرسائل الرسمية تعبر عن رفض الخليفة لكل أنواع الضرائب والمكوس والقبالات التي فرضها المرابطون^(٣) ومن هذه الرسائل الرسالة الصادرة من تينمل في السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وهي موجهة إلى جميع الطلبة بالأندلس ومن صحبتهم من الأشياخ والأعيان وقد جاء فيها: «ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأيناه أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً وأدناها إلى تولاهما رماداً وهلكاً»^(٤).

هذا، وقد ركز الخليفة عبد المؤمن بن علي في رسائله على أن من دخل في طاعة الموحدين لا يطالبون إلا بما توجه السنة وتطلبه «ولا يلزمون - معاذ الله - مكسباً ولا مغرماً ولا قبالة ولا سيما مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه»^(٥).

حتى إذا جاءت سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م فرض الخليفة عبد المؤمن بن علي الخراج^(٦) على الأرض، فقام بمسح شامل للأراضي الزراعية وأسقط ثلث المساحة في

(١) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٥٦ - ص ١٥٨.

S. P. Scott, History of Moorish, Empire; P. 302.

G.F.P. Hopkins, Medieval Muslim, P.; 43.

(٢) تعاليق ابن تومرت، لأبي عبد الله محمد بن تومرت تحقيق غولد تسهير الجزائر ١٩٠٣ (أعز ما يطلب) ص ٢٦١.

(٣) راجع رسالة العدل في نظم الجمان لابن القطان ص ١٥٦ - ص ١٥٨، مجموعة رسائل موحدية لمؤلف مجهول ص ٢١ - ص ٢٢.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٥٦، ص ١٥٧.

(٥) ابن القطان: المصدر السابق ص ١٥٦، ص ١٥٧، البيدق: أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي بروفنسال باريس ١٩٢٨ ص ١٤٠، انظر أيضاً: مجهول: مجموعة رسائل موحدية ص ٢١ - ص ٢٢ تحقيق ليفي بروفنسال.

(٦) الخراج «هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها» انظر الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٦، عن الخراج انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة خراج: انظر: ضياء الدين الرئيس، الخراج ص ٩.

مقابل الجبال والأنهار والطرق وفرض الخراج على ما تبقى من الأرض^(١)، يقول ابن أبي ررع: «وفى هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد أفريقية والمغرب وكسرها من بلاد أفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والاميال طولاً وعرضاً فأسقط من الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسبخا والطرق والحزون، وما بقى قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب^(٢)».

ويبدو أن صاحب روض القرطاس قد خلط بين فرض الخراج وطريقة جبايته، إذ أن المصادر لا تذكر أن خراجاً قد فرض في هذه الفترة بل توضح أن عبد المؤمن بن علي واجه أزمة مالية سببها خيانة العمال المشرفين على الجباية^(٣)، كما يبدو أن الخراج لم يفرض في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي بل كان مفروضاً منذ عصر المرابطين، فالمراكشي يذكر أن الخراج كان يجبي في أيام علي بن يوسف^(٤)، يقول المراكشي «وأمر المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج^(٥)».

وعلى هذا نجد أن الحكومة الموحدية قد التزمت أحكام الشرع في شأن الجباية والاقتصار في ذلك على ما يجيزه الشرع من الزكوات والأعشار^(٦)، كما سبق أن ذكرت

(١) ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس طبعة ١ تونس ١٢٨٦ هـ ص ١١٢، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٥.

Julien, *Historie du L'Afrique*, P. 111 - 112.

Terrasse, *Historie du Morocco*, P. 311 - 312.

J.F, P. Hopkins; *Medieval Muslim Government of Barbary until the six century of the Hijra*, P. 34 - 35 London 1958.

(٢) ابن أبي ررع: الأنيس المطرب ص ١٩٨ - ص ١٩٩، طبعة دار المنصور، عن ذلك انظر: السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٥، يوسف أشباح: تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٧، ص ٢٤٧،

عتان: عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٣٧٧، Huici; M. *Historia*, - 1 -, P. 193.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ (القسم الموحدى) ص ٤٤.

(٤) المراكشي: المعجب في أخبار المغرب ص ٢٤١.

(٥) المراكشي: المصدر السابق نفس الصفحة.

(٦) مجهول: رسائل موحدية، ص ٢١، ابن أبي ررع: الأنيس المطرب، ص ١٢٦، ص ١٢٧، ص

ولكن هذه العهود الرسمية التي كانت تستند في جوهرها إلى تعاليم ابن تومرت ودعايته ضد الدولة المرابطية^(١) فيما جرت عليه من فرض الضرائب غير الشرعية، لم تكن كما يذكر محمد عبد الله عنان سوى شعار مؤقت تستظل به الدولة الموحدية في بداية عهدها، ذلك أنه لما توطدت دعائم الدولة الموحدية الجديدة، واتسع نطاق مسؤولياتها المدنية والعسكرية، سواء في المغرب أو الأندلس، كان من الواضح أن الاقتصار على تحصيل الفروض الشرعية في شئون الجباية لا يمكن أن يفى بما تتطلبه نفقات الدولة، أو نفقات الجيش الموحدى في المغرب والأندلس ومن ثم فقد اضطرت الدولة الموحدية إلى البحث عن موارد جديدة، لزيادة مواردها وتغطية نفقاتها^(٢)، فكان مما فعله عبد المؤمن بن علي في ذلك قيامه بمسح بلاد أفريقية والمغرب وإسقاط مقدار الثلث من مساحتها، مقابل الجبال والأنهار والطرق وفرض الخراج على ما تبقى بعد ذلك وألزم كل قبيلة أن تؤدي قسطها من الزرع والمال^(٣).

هذا ولم يتخذ الخليفة عبد المؤمن بن علي هذا الإجراء إلا بعد أن استقرت الأوضاع في البلاد وصار له من القوة بحيث يفرض ما شاء من أنواع الضرائب ولذا لم يتخذ هذه الخطوة إلا سنة ٥٥٥ هـ / ١٦٦٠ م بعد سقوط دولة المرابطين بأربعة عشر عامًا، وتمكن سلطانه في البلاد وصار لا يناعه أحد^(٤) ومن ثم فرض الخراج، وأصبح هذا الإجراء قاعدة سار عليها خلفاء الموحدين من بعده وأصبح من المصادر الثابتة لجباية الأموال مثل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٥) «كان جماعًا مناعًا ضابطًا لخراج مملكته»^(٦) وكذلك الخليفة المنصور الموحدى الذى سار على نفس سياسة أبيه وجده في جباية الأموال^(٧).

(١) مجهول: رسائل موحدية ص ٢١ - ص ٢٢.

(٢) عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس قسم أول عصر المرابطين والموحدين، ص ٣٧٧، قسم ثانى، ص ٦٢٤ - ص ٦٢٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب ص ١٩٨ - ص ١٩٩، السلاوى: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٥.

(٤) حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص ١٩٧ - ص ١٩٨.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠.

(٦) ابن خلكان: المصدر السابق ج ٦ نفس الصفحة.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٩ ص ١٩٥.

معنى هذا أن دولة المرابطين والموحدين كانت تلغى كافة الضرائب التي كانت سائدة قبل قيامها معتمدة على ما أجازته الكتاب والسنة ومع اتساع الدولة وزيادة نفقاتها تبدأ في فرض ضرائب جديدة وتضع لها من المسميات ما شاءت وهذا يتفق ورأى المؤرخ ابن خلدون إذ يذكر «أن الدولة سواء قامت على سن العصبية أو الدين تكون قليلة الضرائب كثيرة الجباية في أول عهدها، لأن الرعايا ينشطون للعمل فيكثر الاعتماد، وعندما تنتقل الدولة إلى الترف تكثر الضرائب، فيثقل ذلك على الناس، فيقل الاعتماد وتنقص الجباية ولا يكون ذلك إلا تدريجياً فإن أقوى الأسباب في الاعتماد تقليل الضرائب على المعتمدين ما أمكن»^(١).

مصادر دخل الدولة

اذن أصبحت مصادر المال للدولة هي الزكاة والخراج والعشور^(٢) وجزية أهل الذمة^(٣) بالإضافة إلى الغنمة والمصادرات.

الزكاة

من المعروف أن أهم واردات الدولة الإسلامية هي الزكاة^(٤)، فهي ركن من أركان الدين لذلك اتخذ ولاية الأمر من المرابطين والموحدين الزكاة مصدراً من مصادر الدخل للدولة، فابن ياسين منذ اللحظة الأولى التي فرض فيها سلطانه على بعض المناطق الجنوبية بالمغرب ألغى الضرائب والمكوس السابقة وفرض الزكاة مستنداً في ذلك إلى

(١) ابن خلدون: المقدمة (العبر) ج ١ ص ٢٧٩ - ص ٢٨٠.

(٢) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب ص ١٢٦، ص ١٦٧، مجهول: رسائل موحديّة ص ٢١ - ص ٢٢.

(٣) وهي ضريبة موضوعة على رءوس أهل الكتاب الذين يتمتعون بالأمن والحماية في ظل الحكومة الإسلامية، انظر الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٢ - ص ١٤٤، صبيح الصالح: النظم الإسلامية ص ٣٦٣، الرئيس: الخراج والنظم المالية ص ١٢٢.

(٤) هي أول ضريبة إسلامية فرضت على الأغنياء والقادرين وكانت في أول الأمر اختيارية غير محدودة الأنصبة والمقادير ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يأخذها من أموال الأغنياء ليردها على الفقراء بمقتضى قوله تعالى: ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ سورة التوبة آية ١٠٣ انظر صبيح الصالح ص ٣٥٣.

الشرع^(١)، وسار على نهجه أمراء المرابطين الذين جاءوا بعده، فعندما دخل يوسف بن تاشفين غرناطة، أبطل الضرائب والقبالات والخراج وألزم أهل غرناطة «بزكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع»^(٢).

فلما قامت الدولة الموحدية كانت الزكاة أيضاً من المصادر المالية التي لجأ إليها ولاية الأمر وحرصوا عليها باعتبارها من الأمور الدينية الواجب تنفيذها، واعتبر الخليفة عبد المؤمن بن علي مانع الزكاة كمن منع كل الفرائض وهو يستحق الحرب والنكال^(٣).

أما أصناف المال التي تؤخذ منها الزكاة فهي زكاة على الأموال وزكاة على الذهب والفضة والركاز وزكاة على الزرع والثمار وزكاة على المواشى والأنعام^(٤).

ويشترط لإخراج الزكاة شرطان:

ملك النصاب الذي يختلف باختلاف هذه الأنواع المذكورة ومرور عام على الأقل على ملكية هذه الأشياء^(٥).

أما مقادير الزكاة، فقد حددها القاضي عياض، على هذا النحو، زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيها إذا بلغا النصاب، فنصاب الذهب عشرون مثقالاً ونصاب الفضة عشرون مثقالاً، أما زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول، والمعدن والركاز وما كان من ركاز أرض الحرب ففيه خمس وما كان من أرض سلم ففيه الزكاة، وزكاة الزرع أو الثمار وحكم ذاتها هو أنه

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ص ١٢٦ طبعة دار المنصور «فكان كل من أقبل عليه تائباً منهم طهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرايع الإسلام ويأمره بالصلاة والزكاة وإخراج العشر» انظر ابن أبي زرع: نفس المصدر والصفحة.

(٢) عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله ص ٢١٠ طبعة ١٩٥٥ تحقيق ليفي بروفنسال.

(٣) مجهول: مجموعة رسائل موحدية ص ١٣٣.

(٤) القاضي عياض: الإعلام بحدود وقواعد الإسلام ص ٦٣ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ١٩٦٤ الرباط، انظر أيضاً صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص ٣٥٥.

(٥) أبو عبد الله مالك بن أنس: موطأ الإمام مالك ص ١١٥، القاهرة ١٩٦٧ وانظر عن الزكاة أيضاً حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية ٢٧٧، ص ٢٨٠، ص ٣٥٥، ص ٣٥٦، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٠٩ هامش من ١ - ٥.

يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر ونصف العشر إذا كانت أرض تسقى بالدلاء^(١).

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم فأول نصاب خمس وفيها شاة وهكذا في كل خمس، شاة^(٢).

الجزية

كان للمرابطين مواقف خاصة من أهل الكتاب ومن هذه المواقف تشددهم في معاملتهم وقد ظهر ذلك حين فرض يوسف بن تاشفين على يهود قرية إليسانة^(٣) مبالغ طائلة^(٤)، يقول ابن عذارى: «وفيها أي سنة ٤٦٤ هـ افترض على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته، اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثمائة عشر ألف دينار»^(٥).

الغنيمة^(٦)

شكلت الغنيمة مصدراً هاماً من مصادر الدخل للدولة نظراً للمعارك المستمرة التي خاضها ولاة الأمر من المرابطين والموحدين ضد نصارى الأندلس^(٧) وقد طبق عبد الله بن ياسين أحكام القرآن والسنة بشأن الغنائم فحين استولى المرابطون على سجلماسة ودرعة يقول ابن أبي زرع: «فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التي

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص ٦٣ - ص ٦٤.

(٢) القاضي عياض: الإعلام بحدود وقواعد الإسلام، ص ٦٣ - ص ٦٤.

(٣) إليسانة قرية تقع شمال غرب لوشة بولاية غرناطة، عن إليسانة انظر الإدريسي: نزهة المشتاق (وصف أفريقية) ص ٢٠٥ (ط. د.).

(٤) مجهول: الحلل الموشية: تحقيق عبد القادر زمامة ص ٨٠، ص ٨١ انظر عن ذلك عنان دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين قسم ١ ص ٤٢٠.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٥٣ تحقيق إحسان عباس.

(٦) الغنيمة مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والفهر، انظر الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٢١ وانظر صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص ٣٦٦ ومعناها الاصطلاحى الفوز بالشئ. انظر القاموس المحيط باب الميم فصل الغين مادة غنم.

(٧) عن حروب المرابطين ضد نصارى أسبانيا انظر الباب الأول من الرسالة.

أخذها في درعة فأخرج منه خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجدماسة ودرعة وصلحائهم
وقسم الباقي على المرابطين^(١).

وعندما فتح المرابطون الأندلس أحرزوا النصر على النصارى في معارك كثيرة وعلى
رأسها الزلاقة^(٢).

ولما قضى المرابطون على ملوك الطوائف استولى المرابطون على أموالهم وغنموا
الكثير كما فعلوا في غرناطة بعد استسلام أهلها^(٣).

حتى إذا قضى الموحدون على المرابطين وسقطت مراكش استولى الخليفة عبد
المؤمن بن علي عليها وجعلها غنيمة للموحدين^(٤)، ثم واصل عبد المؤمن بن علي
انتصاراته العسكرية فاستولى على أموال ضخمة من الغنائم التي حصل عليها من حروبه في
الأندلس، فعند انتصاره على ابن همشك في غرناطة، استولى الموحدون على غنائم كثيرة
فرقها الموحدون على أنفسهم^(٥).

المصادر:

يشير ابن عذارى^(٦) إلى وجود ظاهرة مصادرة الدولة لأموال عمالهم على أقاليم الدولة
المختلفة، فحين أوكل المرابطون جباية الأموال إلى الجباة، اشتط هؤلاء الجباة في أخذ
الضرائب من الناس فنقموا عليهم، فأراد علي بن يوسف أن يحد من ظاهرة سوء معاملة
الجباة للناس، فبدأ بمحاسبتهم فأمر بمعاقبتهم ومصادرة أموالهم، كما فعل بعامل الجباية
في غرناطة عيسى بن الوكيل^(٧)، فيضيف الحميرى في كتابه الروض المعطار «أنه كان في

(١) ابن أبي رزق: الأنيس المطرب ص ١٢٨ طبعة دار المنصور.

(٢) عن الزلاقة: انظر السلاوى: الاستقصا ص ٣١ - ص ٤٦، ابن أبي رزق المصدر السابق ص ١٤٥
وما بعدها.

(٣) عبد الله بن بلقين: التبيان ص ٢٠٩ - ص ٢١٠ تحقيق ليفى بروفنسال.

(٤) مجهول: الحلل الموشية ص ١٤٣ طبعة دار المنصور.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨٠ وما بعدها.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٧٧، عن اشتطاط الجباة في أخذ الجباية، انظر: ابن

عبدون: ثلاث رسائل أندلسية ص ٢٨ - ص ٣٠، ص ٣١.

(٧) ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ نفس الصفحة.

الدولة اللمتونية فحكى أنه انكسر عليه مال جليل يبلغ عشرة آلاف دينار فقبض عليه وأشخص إلى مراكشى»^(١).

هذا وقد يحدث أن تصادر الخلافة أموال أحد العمال ثم تكتشف ظلم هذا الإجراء فتد له أمواله وهذا ما حدث لمحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف من أهل قلعة يحصب من إقليم غرناطة، وقد تولى عدة أعمال للموحدين^(٢) يقول المقرئ: «وكان محمد ابن عبد الملك بن سعيد وزيراً جليلاً، بعيد الصيت عالى الذكر رفيع الهمة، كثير الأموال... وولى للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكشى وسلا وأشبيلية وغرناطة واتصلت ولايته على أعمال وكان من شيوخها وأعيانها وكتب عليه عقد أن فى داره من الحلى وأصنافه ما لا يمكن إلا فى دار الملك... فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال أفريقية أبى الحسين سنة ٥٩٣ هـ، ثم رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ له، فصرفه عليه ولم ينقص منه شياً (كذا)، وغرم له ما فات منه»^(٣).

النفقات

تعددت أوجه الإنفاق فى بلاد المغرب والأندلس فى ظل دولتى المرابطين والموحدين ومن هذه النفقات: نفقات الجيش، المرتبات، نفقات البناء والتعمير، ثم المنح والهدايا سواء أموال أو إقطاعات من الأراضى الزراعية.

نفقات الجيش

كان الجيش هو أهم أجهزة الدولة المرابطية، ودعامتها الأولى، وعلى الرغم من انضواء تلك الدولة تحت لواء الدعوة الدينية الإصلاحية^(٤) التى نظمها عبد الله بن ياسين،

(١) الحميرى: الروض المعطار ص ١٩٧.

(٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٢، المراكشى (عباس بن إبراهيم) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام ٨ أجزاء، ج ٣ طبعة ١ سنة ١٩٦٣ ص ٤٠، ص ٤١، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٣٣٥.

(٣) المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٣٣٥ - ص ٣٣٦.

(٤) انظر الباب الأول من الرسالة.

إلا أنها كانت دولة عسكرية نشأت في مهاد المعارك سواء التي اضطرت بين المرابطين أنفسهم وبين القبائل المغربية الأخرى أو التي اضطرت بين المرابطين أيضاً وبين نصارى أسبانيا في الأندلس واستطاعت تلك الدولة أن تبسط سلطانها على بلاد المغرب والأندلس، وأن تقيم الدولة المرابطية الكبرى^(١).

واستطاعوا رفع راية الإسلام في بلاد المغرب والأندلس وظلت هذه الجيوش تجاهد أعداء الإسلام من غير كلل ولا ملل، فسجل لها التاريخ أمجاداً عسكرية كبيرة، وقد نوه بشجاعة ومقدرة جيش المرابطين الجغرافي المؤرخ أبو عبيد البكري، فقال: «ولهم في قتالهم شدة وجلد ليست لغيرهم وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف»^(٢).

هذا وقد بذل يوسف بن تاشفين في تنظيم الجيش المرابطي جهوداً عظيمة، حتى غدا جيشاً قوياً، مرهوب الجانب فاشترى الأنواع المختلفة من الأسلحة ليدعم بها الجيش المرابطي، يقول صاحب الحلل الموشية «وفي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعث إلى الأندلس بأموال كثيرة ليشتري ما يلزمه من أنواع السلاح المختلفة»^(٣).

وكانت قوة الجيش المرابطي تتكون من الفرسان، وقد بلغت في عهد يوسف نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل^(٤) كما أنشأ يوسف بن تاشفين فضلاً عن ذلك حرسه الخاص الأسود من عبيد الصحراء من غانة وكانوا حوالى ألفى مقاتل زودوا بأجود الأسلحة^(٥)، كما أنشأ يوسف قوة كبيرة خاصة من فرسان جزولة ولمطة وزنانة سميت بالحشم^(٦)، هذا بالإضافة إلى الجند الروم^(٧).

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤١٧.

(٢) أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، ص ١٦٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص ٢٢ طبعة علوشى.

(٤) ابن أبي زرع: الانيس المطرب ص ٨٩ طبعة أسبالة ١٨٤٣.

(٥) مجهول: المصدر السابق ص ١٣.

(٦) مجهول: نفس المصدر ص ٢٠.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٩٨.

وكان مرتب الجندي كما يقول صاحب الحلل الموشية خمسة دنائير في الشهر^(١)، كما كانت الدولة تكافئ الجنود بإقطاعات واسعة يستثمرونها ويتصرفون في غلتها^(٢).

وقد تابع الأمير على بن يوسف سياسة أبيه في مواصلة الجهاد في الأندلس، يقول صاحب الحلل الموشية: «ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف يوالى الحروب على أصحاب المهدي من كل جانب ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب... وينفق عليهم بيوت الأموال رجاء دفع دائم دائهم العضال فدامت أكثر مدته في حروب معهم وكروب»^(٣).

ولم ينس المرابطون أهمية الأسطول، ولا سيما منذ افتتحوا الأندلس، وغدت الأندلس ولاية تابعة للمغرب، فكانت لهم أساطيل في سبتة وقادس والمرية، أشار ابن خلدون إلى أهمية أسطول المرابطين بقوله «وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد - أي عهد المرابطين - موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة»^(٤).

وعندما قامت الدولة الموحدية أولت الجيش والأسطول اهتماماً كبيراً فهو درعها الواقى ضد أطماع نصارى أسبانيا وهو هيبتها أمام القبائل المغربية في بلاد المغرب، ولذا أولت الجيش اهتماماً خاصاً واستلزم ذلك بذل الكثير من الأموال التي تنفق عليه وكانت شئون الجيش توكل إلى ديوانين أو وزارتين، الأول هو ديوان العسكر ويشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش^(٥)، والثاني هو ديوان التمييز^(٦) ومهمته اختيار الصفوة من الجند وكان

(١) مجهول: المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤١٢، انظر: الطرطوشي: سراج الملوك ص ١٢٣.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص ٨١، ص ٨٢.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٥٥.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ (القسم الموحدى) ص ١١٤، انظر عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ص ٦٣٨ العصر الموحدى (القسم الثانى).

(٦) كان يتولى ديوان التمييز كاتب يسمى صاحب ديوان التمييز أو كاتب العسكرية، وكان الموحدون يلجئون إلى التمييز عند العمليات الحربية، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٦٥ هامش رقم (١).

يجرى التمييز قبيل كل غزوة أو حرب هامة، وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفًا هامًا ودقيقًا لعملية التمييز التي قام بها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند الاستعداد للعبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م، يقول: «ولما كانت غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم، ومنتهى مناوئهم، وتربية صفاتهم، فامتثل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يومًا، وقسم عليهم الخيل المسومة الجياد الروقة على أعدادها المذكورة، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرماح والدروع، والبيض، والسيوف، وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة، من الآلات المذكورة الكاملة، على أتم النظر المبارك حتى كمل على أتم العزم والحزم، ثم أمر لهم بإعطاء البركة عن الزاد لهذه الغزاة الملكة»^(١).

وكان الخليفة يجلس بنفسه ليعاين توزيع الأموال على الجنود «وجلس أمير المسلمين - أي يوسف بن عبد المؤمن - في مجلسه العالى وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضرة وأشياخ العرب وأمر وزيره أبا العلاء إدريس المذكور أن يأمر الخزائين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدرهم فأحضرت أمامه وعلت أكداسًا، وجنسها من الذهب والفضة أجناسًا، وقدم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير ولغير الكامل ثمانية دنانير وللراجل خمسة دنانير ولغير الكامل ثلاثة دنانير، وأمر للعرب بيركتهم فخره للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون دينارًا ولغير الكامل خمسة عشرة دينارًا والراجل سبعة دنانير وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ خمسون دينارًا، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفاير والعمائم»^(٢) ويتضح من هذا النص مدى ضخامة الأموال والعطايا التي كانت تمنح للجيوش الموحدية بالإضافة إلى السلاح والملابس، أضف إلى ذلك المنح والعطايا التي كانت تمنح للجيوش الموحدية بعد الانتصار في المعارك المختلفة، فنجد الخليفة عبد المؤمن بن علي يأمر للموحدين بعد انتصارهم على ابن همشك أثناء غزوه لغرناطة بالأموال والعطايا، يقول ابن صاحب الصلاة: «وأتصل في أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين ﷺ لمدينة غرناطة

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٦٥ - ص ٤٦٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٦٦، انظر تعريف تلك الملابس في الباب الثالث.

وقصبتها سنام الأندلسي، فملا مخازنها في القصبه بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب من الرماح والدروع والسيوف والقسي والسهام والترسة بما أبهت الناظرين، وقصر عن وصف الواصفين، وأوصل أمره العزيز ذلك كله إليها من العدو في المراكب في البحر إلى حصن المنكب وانتقل جميع ذلك من المنكب إلى غرناطة وتحصل في قصبتها مخزوناتاً، فحييت بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول، والنيل المبذول، واستنقذ من كان فيها من الموحدون من علة الحصار، وبعد الانتصار، وأجزل لهم الزيادة في بركاتهم، والنماء لهم في مواسمهم وأنعم عليهم بالإحسان إحساناً^(١).

وبالإضافة إلى هذه الأموال والمنح كان الموحدون يوزعون ما عرف باسم المواساة وهي غلة تفرق عليهم عند تحصيل الغلال إلى المخازن^(٢) ومع المواساة ما عرف باسم الإحسان وهو مبلغ من المال وكانت المواساة والإحسان تفرق من السنة إلى السنة^(٣).

وإلى جانب إعداد الجيش وتجهيزه كان الإنفاق أيضاً على الأسطول، فقد اهتم الموحدون اهتماماً كبيراً بالأسطول وذلك لحماية شواطئ الدولة من القرصنة ونصارى أسبانيا، وقد أشار ابن خلدون إلى ضخامة الأسطول الموحدى بقوله: «ولما استفحلت دولة الموحدون في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهدته^(٤)».

وهكذا كان الجيش والأسطول في دولتي المرابطين والموحدون يستنفد جزءاً كبيراً من دخل الدولة نظراً لضخامة الجيوش المرابطية والموحدية واهتمامهم بها.

المرتبات

شكلت المرتبات مصدراً آخر من مصادر نفقات المرابطين والموحدون فكان المرابطون يجرون المرتبات والأرزاق على موظفي الدولة ومن هؤلاء القضاة^(٥) والفقهاء يقول ابن

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص ١٩٦.

(٢) العمري: مسالك الأبصار (وصف أفريقيا) ص ١٩ تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب.

(٣) العمري: المصدر السابق ص ١٩.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٥٥ يذكر ابن أبي دینار القيروانى أن عدد الأسطول الموحدى وصل

إلى سبعمائة قطعة، انظر ابن أبي دینار: المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ص ١١٢.

(٥) النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص ١٤٠، تحقيق ليفى بروفنسال.

القاضي «ورد - أي يوسف بن تاشفين - أحكام البلد إلى القضاء وأسقط ما دون الأحكام الشرعية وكان محبباً في الفقهاء والصلحاء، ومقرباً لهم صادراً عن رأيهم وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال»^(١).

حتى إذا قامت الدولة الموحدية تعددت أنواع المرتبات فكان هناك رجال البلاط والقضاة والفقهاء والطلبة^(٢)، ويذكر القلقشندي أن أشياخ الموحدين الكبار كان لهم راتب يفرق عليهم طول السنة يسمونها البركات وكان مقدارها أربعون ديناراً^(٣).

أما الطلبة وهم أبناء القبائل الذين اهتم بهم الخليفة عبد المؤمن بن علي حيث أعدمهم إعداداً خاصاً لتولى شئون البلاد فقد أجرى عليهم المرتبات والأرزاق من خزانة الدولة^(٤).

وقد اهتم خلفاء الموحدين بعد عبد المؤمن بطلبة الموحدين فأجروا عليهم الأرزاق والمرتبات^(٥).

فقد أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمراكش سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م الطلبة الذين بأشبيلية «أن يدفعوا للموحدين بأغرناطة من البركة - أي المرتبات - مثل ما أخذه أهل قرطبة»^(٦).

كما يذكر ابن صاحب الصلاة ما ناله الناس في مدة خلافة يوسف بن عبد المؤمن «ونال الناس معه في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات من الكتاب، والعمال والطلبة والقضاة والرعية بصلاح أحوالهم ونماء أموالهم ما لم يعقد مثلها في زمان، حتى شبهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان رضي الله عنه»^(٧).

(١) ابن القاضي: تاريخ قضاة الأندلس ص ٤٣٢، ص ٤٣٣.

(٢) أشياخ: تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٤٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٠، ص ١٤١.

(٤) انظر عبد الله عنان: دولة الإسلام، عصر المرابطين قسم ١ ص ٤٠٣.

(٥) السلاوي: الاستقصا، ج ٢ ص ١٩٨.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٧٤ طبعة سنة ١٩٧٩.

(٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢٣٣.

نققات البناء والتعمير:

اهتم المرابطون ثم الموحدون من بعدهم بالإنشاء والتعمير ونال البناء والتعمير سواء في المغرب أو الأندلس اهتمام المرابطين والموحدين وهذه المباني استلزمت أموالاً كثيرة، فقد اهتم المرابطون بتسوير المدن بأسوار حتى لا تكون عرضة لهجمات العدو فأصلحوا أسوار المرية وغرناطة^(١) وغيرها من المدن المغربية والأندلسية كذلك اهتم الموحدون بالإنشاء والتعمير فقد أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة الفتح على جبل طارق وأنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة، يقول الحميري: «وكان أحد خلفاء بني عبد المؤمن - وهو عبد المؤمن بن علي - أمر ببناء مدينة جبل طارق، فندب إليها البنائين والنجارين وقطاع الحجر للبيان والجيار من كل بلدة وخطت فيه المدينة، وقدم إليها من المال ما يعجز كثرة، واتخذ فيها الجامع وقصرًا له، وقصورًا تجاوره للسادة بنيه وتولى العمل في ذلك وسميت بمدينة الفتح»^(٢) فأحكم البناءون فيه بناء من القصور والديار^(٣).

أما الخليفة أبو يعقوب يوسف فكان مولعًا بالعمارة، محبًا لها فإليه يرجع الفضل في بناء مدينة رباط الفتح، وعاقه الموت عن إتمامها فأتتها ابنه المنصور^(٤).

وقد حظيت الأندلس باهتمام الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ففي سنة ٥٦٧ هـ / ١٧٧١ م حين توجه إلى أشبيلية قام ببناء قصبة أشبيلية وجامعها الأكبر وقد استقدم لذلك

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٧٠ وما بعدها «لجأ المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل الأندلس تسمى التعيب وذلك لبناء أسوار جديدة للمدن وترميم المتهدم منها انظر المصدر السابق ج ٤ نفس الصفحة، عبد الهادي شعيرة: المرابطون وتاريخهم السياسي مكتبة القاهرة الحديثة ط الأولى سنة ١٩٦٩ م.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص ١٢١.

(٣) «تنص بعض المصادر على أنه بالإضافة إلى القصر الخاص شيد للخليفة عبد المؤمن قصور أخرى بجوار قصر الخليفة للسادة بنسبه بالإضافة إلى الجامع الذي تقام فيه الصلوات» انظر الحميري: المصدر السابق: نفس الصفحة، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٢٢.

(٤) المراكشي: المعجب ص ٣٤١.

الغرض عرفاء أهل الأندلس^(١) وعرفاء مراکش وفاس وشرع فى بنائه فى سنة ٥٦٧ هـ وتم فى سنة ٥٧١ هـ ونقلت إليه الخطبة من جامع ابن عدبس فى سنة ٥٧٧ هـ^(٢)، كما أمر أن تحاط هذه القصور بمساحات واسعة من الحدائق غرس فيها الزيتون والأشجار والأعشاب وقد تكلف ذلك أموالاً طائلة صرفت من خزينة الدولة^(٣).

وقد تميز العصر الموحدى مع ضخامة البناء وإحكام صنعته بسرعة الإنجاز فقد أنشئت مدينة جبل الفتح فى عام^(٤).

نفقات متنوعة

لم تقتصر نفقات المرابطين والموحدين على النفقات العسكرية ومرتبات موظفى الدولة فقط، بل كانت هناك أوجه أخرى للإنفاق لجأ إليها المرابطون والموحدون ومن هؤلاء الأمراء الذين استولى المرابطون ثم الموحدون على أوطانهم، فحين قضى يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف واستولى على غرناطة أرسل أميرها عبد الله بن بلقين إلى أغمات بالمغرب الأقصى وقام بالإنفاق عليهم، يقول الأمير عبد الله بن بلقين فى مذكراته «وأمرنا - أى يوسف بن تاشفين - بإنزال الأمير عبد الله وابن عباد وغيرهم من أمراء الأندلس - أن تستوطن أغمات فأتيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم، ولم يزل يفتقدنا مع أنعامه كيف ما هيا الله على يديه»^(٥).

(١) اشتهر فى كتب التاريخ الأسباني الحديث أن اسم المهندس الذى قام ببناء الخيراندا بأشبيلية مجهول تماماً، وظن البعض أن الذى اضطلع بمهمة البناء فى المسجد هو جابر بن أفلح الأشبيلية، ولكن ابن صاحب الصلاة هو شاهد عيان يكشف النقاب عن المهندس العربى الكبير الذى قام ببناء جامع أشبيلية واقامة الصومعة أنه أحمد بن باسة الذى لم تر له ذكراً فى غير ابن صاحب الصلاة، انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٥٠٩ هامش رقم ٣ عن ابن باسة انظر شكيب أرسلان: الحلل السندسية ص ٢٤٠ Melchor Antuna; Sevillay susmonumento arabes, 1930. P.p 131 - 133.

(2) Melchor .op. cit. p. 130 - 138.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٩٦ - ص ٥٠١.

(٤) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر، نفس الصفحات، المراكشى: المعجب ص ٣٤١.

(٥) عبد الله بن بلقين: التبيان ص ١٧١.

وفى عصر الموحدين وصف المراكشى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأنه كان جواداً سخياً حيث أعطى هلال بن محمد بن مردينش صاحب شرق الأندلس اثني عشر ألف دينار فى يوم واحد^(١).

كما أقطع الموحدون ابن همشك المسئولى على غرناطة سهام أى أقطاع تسكيناً له^(٢).

الإدارة المالية

سبق أن أشرنا إلى أن يوسف بن تاشفين دون الدواوين وذلك بعد اتساع أعمال الدولة واستقرار الأوضاع فيها يقول ابن عذارى «فدون - أى يوسف بن تاشفين - ٤٦٤ هـ الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد^(٣)، وفى عهده (أى يوسف بن تاشفين) كان مستخلص^(٤) البلاد الأندلسية كلها تحت نظر ديوان واحد مركزه غرناطة^(٥) وفى إمارة على ابن يوسف تعددت الدواوين فأنشئ فى كل قاعدة أندلسية ديوان^(٦).

أما الذين كانوا يشتغلون بالشئون المالية فهم الكتاب والجباة، فكان الكتاب يقومون بتدوين الحسابات المالية، والجباة كانوا يقومون بجبايتها، وقد ذكر كل من ابن الأثير والنويرى أن جباة الأموال فى عهد على بن يوسف كانوا من الفرنج والروم^(٧).

وقد حرص الموحدون على تنظيم أعمال الجباية وحفظ الأموال، ففى ديوان الجباية كتاب فى جميع جهات الولاية الواحدة يقيدون المتحصل ويضبطونه ويرفعونه إلى الخليفة

(١) المراكشى: المعجب ص ٣٢٧، ص ٣٢٨.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٣٠٢، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤١٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ تحقيق إحسان عباس.

(٤) المستخلص: المراد به الأملاك السلطانية الخاصة التى يرجع ريعها إلى خزائنه الخاصة.

(٥) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٧.

(٦) ابن عذارى: البيان ج ٤ ص ٧٤.

(٧) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ مخطوط، محقق ج ٢٤ ص ٢٨٢،

تحقيق حسين نصار، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢٩٦، مجهول: الحلل الموشية ص

فيختمه بخاتمه مما ييسر محاسبة العمال على أعمالهم فلا يتعدون على الناس وينهبون أموال الدولة وإن فعلوا عوقبوا^(١).

هذا وقد سار الموحدون على سياسة مراقبة المشتغلين بالشئون المالية وذلك بعد أن اكتشف الخليفة عبد المؤمن بعض مظاهر الفساد المالي في البلاد، فبعض النجاة والعمال كانوا يفرضون على الناس المنغرام والمكوس ويدعون أنها للمخزن وقد تعرض التجار للضرائب الباهظة من قبل عمال الجباية الذين كانوا يدعون أنها تخص الدولة «وإن من ذلك الرأي الزميم والسعى المنقوم ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها والطوائف المارة على البلاد لمعنى التجارة، ينسب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش فيما يوهمون به النصيحة ويستتبطون المكر في تصرفاتهم القبيحة، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت وإن للمخزن جميع ما به أتيت ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منا له وإنها لداهية عاقرة قاصمة للظهر فاقرة»^(٢) وتابع الموحدون سياسة الخليفة عبد المؤمن في محاسبة المشرفين على الأمور المالية على سوء تصرفاتهم في النواحي المالية^(٣).

وقد أطلق على من يتولى جباية الأموال اسم صاحب الأعمال في عصر المرابطين^(٤)

(١) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ١٦٢، ص ٢٠٥، ج ١ ص ٢٤٩، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ (القسم الموحدى) ص ١١٠، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥، ص ٢٣٦، الذيل والتكملة ج ٤ ص ٢١٤.

(٢) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٥٧، ص ١٥٨.

(٣) انظر محاسبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لعمال الجباية في غرناطة أبي عمر بن أنلح في ابن عذاري: البيان المغرب ج ٤ قسم ٣ (القسم الموحدى) ص ١١٠، ومحاسبته يمكن لمحمد بن عبد الملك بن سعيد عاملا الجباية أيضا في غرناطة في (المغرب ج ٢ ص ١٦٢، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥، ص ٢٣٦).

(٤) محمود على مكى «وثائق تاريخية جديدة» ص ١٨٣ - ص ١٨٥.

والموحدين^(١) وأحيانا أطلق عليه اسم المشرف^(٢)، ويذكر ابن خلدون أن الموحديين أطلقوا على تلك الوظيفة أيضا اسم «صاحب الأشغال»^(٣) وقد أشار المقرئ إلى تلك الوظيفة بقوله «وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير، وأكثر أتباعا وأصحابا وأجدي منفعة، فلإيه تميل الأعناق، ونحوه تحدد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود النظار، ومع هذا إن تأملت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتماب نكب وصور، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان»^(٤).

ومن عمال الجباية الذين تولوا الإشراف على الأموال وجباياتها في إقليم غرناطة في العصر المرابطي، عيسى بن الوكيل^(٥) ومحمد بن سعيد الغرناطي^(٦) وعبد الملك بن سعيد الغرناطي^(٧) يقول ابن سعيد: «وكان مقدما عند يحيى بن غانية في مدة المثلثين، ثم ولاه بنو عبد المؤمن أعمال أشبيلية وغرناطة وسلا»^(٨) وفي مدينة المرية تولى أعمال الجباية يزيد ابن طبقلاب^(٩)، وقد تولى أعمال المرية في عهد المنصور الموحدى.

(١) البيهقي: أخبار المهدي ص ٦٥، ص ١٠١، ابن عذارى: ج ٤ قسم ٣ القسم الموحدى ص ١٧، ص ١٩، ص ١١٢، ص ١٤٠، ابن سعيد: المغرب ج ١ ص ٢٤٩، ج ٢ ص ١٦٣، ابن الأبار الحلة السيرة ص ٢٣٥، ص ٢٣٦، المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥، ص ٢٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨٢ المشرف بالأسبانية Almojorife كان هو الذى يتوصل بكل الواجبات والحقوق اللازمة عند الإيرادات والإصدار للسلع فهو بمثابة المفتش العام للديوانية انظر المن بالإمامة هامش ٣ ص ١٨٢ وانظر Dozy: Recherches page 381 كان ابن دهرى صهرا لابن زيد مشرف غرناطة وقد استطاع أن يجمع حوله طائفة من اليهود المتظاهريه بالإسلام وعليهم اعتمد ابن همشك فى التأمير على غرناطة ومحاولة الإجهار على الموحديين انظر ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق ص ١٨١ هامش (٥).

(٣) ابن خلدون: العبر ج ١ ص ٢٤٥.

(٤) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧.

(٥) الحميرى: الروض المعطار ص ١٩٧.

(٦) يذكر ابن سعيد أنه كان صاحب أعمال غرناطة فى مدة المثلثين، انظر عنه المقرئ: نفع الطيب ج ٣ ص ٦١ ط سنة ١٩٦٨ - بيروت تحقيق إحسان عباس.

(٧) المقرئ: نفع الطيب ج ٢ ص ٣٣٧ طبعة بيروت يذكر المقرئ أنه كان وزيرا جليلا بعيد الصيت عالى الذكر رفيع الهمة كثير الأموال، انظر: المقرئ: المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٥ - ص ٣٣٧ طبعة بيروت.

(٨) ابن سعيد: المغرب ج ٢ ص ١٦٣.

(٩) ابن سعيد: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦.

أما في عهد الناصر فقد تولى محمد بن عبد الرحمن الغرناطي أعمال الجبابة من غرناطة^(١)، أما مدينة مالقة فقد تولى أعمال الجبابة فيها في عهد الناصر الفقيه أبو عامر محمد بن حسون^(٢) وأبو علي بن يقي^(٣).

وقد كانت هذه الأموال تجبى سنويًا، فقد أشار ابن خلكان والنوبري إلى أن جبابة الأموال كانوا يصعدون إلى الجبل كل عام لجبابة الأموال^(٤).

السكة^(٥)

تسهم العملة في إعطائنا صورة صادقة عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية للدولة، فهي تدل على مدى قوة الدولة أو ضعفها سياسياً واقتصادياً ويؤكد حسن أحمد محمود في كتابه قيام دولة المرابطين هذا حيث يقول «إن التجارة الدولية في عهد المرابطين، بلغت شأنًا عظيمًا، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطي^(٦) حتى لقد قيل إن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطينية، وكاد أن يصبح عملة دولية^(٧)».

كذلك كانت العملة نوعًا من أنواع تأكيد السيادة السياسية على الدولة^(٨)، فقد اتخذ المرابطون التقود وذلك لتأكيد سلطانهم السياسي على البلاد^(٩) يقول ابن عذارى «وضرب

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (مخطوط الرباط رقم ٤٢٧٠ ك) ورقة ٦٥.

(٢) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة السفر الرابع تحقيق إحسان عباس ص ٢١٤.

(٣) ابن سعيد المغرب ج ١ ص ٢٤٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ طبعة أولى سنة ١٩٤٨ م ستة أجزاء النهضة لمصرية، النوبري: نهاية الأرب مخطوط ج ٢٢ ص ٨٥، مطبوع ج ٢٤ ص ٢٨٢ تحقيق حسين نصار.

(٥) «السكة هي الحديدية يطبع عليها الدينار والدرهم فسميت سكة بها الدنانير والدراهم» انظر ابن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة ص ٤٧، مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٥٨ مجلد ٢، تحقيق حسين مؤنس طبعة سنة ١٩٦٠، ص ٤٩.

(٦) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين: ص ٤٠٣.

(6) Nevill Barbour: Morocco P. 59.

(7) Laviox: Catalogue des Monnaies Musulmanes P.

(٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ طبعة بيروت تحقيق إحسان عباس.

(٩) ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ ص ٢٢.

الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر في هذا العام^(١)، وبالإضافة للدينار الذهبي ضرب المرابطون الدراهم الفضية في جميع دولتهم وكانت متفاوتة في الوزن^(٢)، كذلك ضربوا دراهم نحاسية^(٣).

هذا وقد استخدم أهل الأندلس عامة وأهل غرناطة خاصة الدينار المرابطي «وديارهم لم تخلص للمرابطين بعده»^(٤).

قد ضرب يوسف بن تاشفين عملة مدورة الشكل وقد كتب عليها اسمه وذلك في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م)^(٥) وقد وصف لنا ابن المؤقت في كتابه السعادة الأبدية شكل العملة المرابطية بقوله «وضرب - أي يوسف بن تاشفين - السكة يؤمئذ وجددها ونقش في دينارها لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكتب في الدائرة ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وكتب في الصفحة الأخرى: الأمير عبد الله العباسي، وفي الدائرة تاريخ ضربه»^(٦) وكتب في الوجه الآخر الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكوته^(٧).

وقد تفاوت سعر الدينار الذهبي باختلاف أسعار الذهب من وقت لآخر، فقد بصرف

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ نفس الصفحة «وبعد الزلافة ضرب يوسف بن تاشفين العملة باسمه وحده» انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج ٤ ص ٤٦.

(2) Lavoix, H., Catalogue de monnoies musulmones, pp. 536.

(٣) الونشريشي: المعيار ج ٦ ص ١١٧.

(٤) عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (التيان) ص ١١٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦، السلاوى الاستقصا ج ٢ ص ٣٢ كان الدينار المرابطي يحمل التاريخ الهجرى لسنة السك واسم على بن يوسف أمير المؤمنين مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله واسم أمير المؤمنين المرابطي والإمام عبد الله أو الإمام العباسي وسورة من القرآن.

Lavoix, M. Henri, Catalogue. P.

(٦) ابن المؤقت: السعادة الأبدية ج ٢ ص ٩٠، انظر أيضا ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦.

بائتين وسبعين حبة من الذهب وفي وقت آخر يصرف بائتين وسبعين حبة من الذهب وفي بعض الأحيان يصرف ستة وسبعين حبة^(١).

كذلك ضرب المرابطون الدراهم الفضية وكانت متفاوتة في الوزن^(٢) فدراهم ضرب مراکش تكون من حساب عشرين درهما في الأوقية أما في غرناطة فكانت هذه الدراهم من حساب سبعين درهما في الأوقية^(٣) ومن الدرهم كانوا يضربون أنصافا وأرباعا وأثمانا، أو تضرب منه وحدات تعرف بالقواريط و الخرايب^(٤).

هذا وقد تعددت دور سك العملة في عصر المرابطين والموحدين فابن عذارى أشار إلى أن يوسف بن تاشفين بنى دارا للسكة بمراكش سنة ٦٤٤ هـ / ١٠٧١ م ضرب فيها السكة^(٥).

وقد جرى سك العملة في المغرب كما كان الحال عليه في المشرق فلم تكن السكة قاصرة على العاصمة أو على بلد واحد، بل كانت تضرب في كثير من الحواضر، فقد سكت النقود في فاس وتلمسان وبجاية وتينمل ومكناس وتونس وأغمات وتطوان وسجلماسة ومراكش ونكور وسلا وطرابلس، أما في بلاد الأندلس فقد سكت عملات في ميورقة ومالقة ومرية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية وشريس ومنورقة وسرقس وكانت العملات تنسب إلى البلاد التي سكت فيها^(٦).

ويذكر ابن الخطيب في حديثه عن العملة في غرناطة «وصرفهم فضة خالصة، وذهب إبريز طيب محفوظ ودرهم مربع الشكل من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين»^(٧) وفي الأوقية منه سبعون درهما^(٨).

(١) الونشريشي: المعيار جـ ٨ ص ١٩٧.

(2) Lavoix, H. catalogue p.p 536.

(٣) الونشريشي: المعيار جـ ٦ ص ٣١٠، ص ٣١٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٣، ابن الخطيب أعمال الأعلام ط ليفي بروفنسال ص ١٧٤.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٢.

(6) Lavoix, Catalogue p. 536 - 544.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة جـ ١ ص ١٣٧.

(٨) ابن الخطيب: المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨.

أما الدولة الموحدية فقد كانت عملتها من الدنانير والدرهم، يقول ابن خلدون: «ولما جاءت دولة الموحدين كان ممن سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملا من أحد الجانبين تهليلاً وتحميماً ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون»^(١) ويذكر صاحب ضوابط دار السكة بقوله «ولكن ليس من الثابت أن العملة المربعة (المركنة) من ابتكارات أبي عبد الله محمد بن تومرت مهدي الموحدين، وهو نفسه لم يضرب نقوداً، إذ لم يكن بخليفة أو أمير، وأول من ضرب عملة مربعة الشكل، هو عبد المؤمن بن علي أول الخلفاء الموحدين»^(٢) ولم يقتصر تربع العملة على الدرهم بل تعداه إلى الدنانير^(٣)، وكان الدينار الموحدى ضعف الدينار العادى فى الوزن، ولهذا عرف باسم *dobla†* عند النصارى^(٤)، كذلك وجدت العملة اليوسفية المنسوبة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٥) ويذكر صاحب ضوابط دار السكة أن الناس كانوا يتعاملون بكل

- (١) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٦٢ كانت عملة الموحدين عبارة عن حفر مستطيل داخل دائرة مكتوب بداخلها الإمام المهدي وسوره من القرآن واسم الخليفة واللقب الشرفى ونسبه ومكان السك وكانوا لا يكتبون تاريخ السك فى الأول. Lavoix. Ibid.
- (٢) على بن يوسف الحكيم: ضوابط دار السكة ص ٤٩ «كانت العملة كلها قبل ظهور الموحدين مدورة الشكل» انظر المصدر السابق، نفس الصفحة هامش رقم ١.
- (٣) على بن يوسف الحكيم نفس الصفحة هامش رقم ١.
- (٤) حيث ضاعف المنصور الموحدى وزن عيار العملة، انظر ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٤ قسم ٣ (القسم الموحدى) تحقيق هويتى ميراند انطوان سنة ١٩٦٠ ص ١٥٤ يرى مؤنس أن الدينار الموحدى كان يساوى ٢٣٥ غراما ولما ضاعفه المنصور أصبح يساوى ٤٧٠ غراما انظر ضوابط دار السكة ص ٤٩.

يرى ماسينيون أنه كان ٤٧٢٩ غراماً انظر Massignon, le Maroc p.p 102 - 103

- (٤) وجدت عملات موحدية فى مدن عديدة من فرنسا مثل مونبليه ومرسليا، كتب عليها الله ربنا - محمد رسولنا - المهدي إمامنا - وهى مصنوعة من الفضة وثبت أن هذه العملة هى الدرهم المصمودى، كذلك استخدمت العملة الموحدية فى إبرام المعاهدات التجارية التى عقدت بين بيزة وفلورنسا وأمراء المغرب انظر Lavoix. Ibid. p. V 11, V 111
- (٥) ابن سعيد الصفاقس: نزهة الأناظر فى عجائب التواريخ والأخبار تونس ١٣٢١ هـ - ج ١ ص ١٨٢، ص ١٨٣، الزركلى فهرس الأعلام ج ٣، ١١٨٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠، العيني: عقد الجمان ج ١ قسم ١ ص ١٣.

سكة منها إلى أن صار التعامل في الدراهم على وزن الدراهم اليعقوبية^(١)، كذلك تنسب الدنانير اليعقوبية إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدى^(٢).

وقد انتشرت في الأسواق ظاهرة غش العملة وخاصة في عصر الموحدين ولا يكون الغش بتقليد العملة فقط بل عادة ما يكون بإضافة معادن رخيصة إلى فضتها^(٣)، وامتد هذا الغش فشمّل نصارى أسبانيا فكانوا يزورون العملة الموحدية أيضا^(٤).

ولم تكن العملة هي وسيلة التعامل الوحيدة في بلاد المغرب والأندلس، فقد وجدت إلى جانب العملة السفاتج^(٥) والصكوك^(٦) وهي من وسائل المعاملات الهامة في ذلك الوقت ولقد استخدم التجار الأندلسيون والمغاربة في معاملتهم التجارية السفاتج والصكوك وذلك ضمناً لإتمام العمليات التجارية وتسهيلها وكانت السفاتج والصكوك تتخذ لتجنب الضياع والسرقة وقد استخدمت الصكوك في المعاملات التجارية كدفع الديون^(٧) وفي أعمال البيع المختلفة.

أما الموازين والمكاييل فقد استعملها الأندلسيون والمغاربة على السواء في معاملتهم التجارية، وكانت وحدة الوزن في بلاد المغرب والأندلس هي القنطار والرطل والأوقية والدرهم وكان الرطل يحتوى على ١٦ أوقية وكل أوقية ٢١ درهما^(٨).

وقد اختلفت قيمة الوزن حسب نوع السلعة^(٩)، كذلك اختلفت الأوزان باختلاف

(١) أبو الحسن، الدوحة المشبكية ص ١٥، انظر هنا: ابن سعيد: نزهة الأنظار ج ١ ص ١٨٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢ وكان أعلى وزن وصل إليه الدينار ٤٦٧ جرام ضرب في عهد الخليفة المستنصر بالله في مدينة فاس Lavoix: Ibid. P. 305 - 306 أما أعلى وزن للدرهم المصمودى الفضى فكان ٢٣١ جرام Lavoix: Ibid. P. 301

(3) Bel, A., Contribution a l'etude des dirhems. Hesperis 1933, tom x v. t, P.5

(4) Bel. op. cit. p.7

(٥) السفاتج كلمة فارسية مفردها سفتجة ومعناها خطاب ضمان مالى انظر «جمال سرور» تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص ١٦٣.

(٦) أما الصك فمعناها سند الدين وهي تشبه في الوقت الحاضر الكمبيالة أو الشيك، انظر محمد على حيدر: الأوضاع الاقتصادية في العراق والمشرق ص ٢٨٦.

(٧) مصطفى الهمشرى: الأعمال المصرفية في الإسلام ص ٢١، ص ٢٢.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ١١٤، ص ١٧٧.

(٩) الشيرزى: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٥.

المكان فكان لكل إقليم وبلد فى المعاملة على أرتال تتضاءل فى الزيادة والنقصان»^(١) فمثلا اللحم كان يباع بالرطل فى إقليم غرناطة^(٢) كما كانت جميع السلع المختلفة تباع بالأواق^(٣)، فقد استخدمت الأوقية فى إقليم غرناطة فكانت ربع أوقية الجبنة بستة عشر درهما^(٤)، أما الخبز فكان ١٥ أوقية بربع درهم^(٥).

أما المكاييل فهى نوعان، الأول يسمى القفيز ويساوى ١٦ وبيبة وكل وبيبة ١٢ مدأ^(٦) والثانى يسمى الصفحة أو الوسط وكل صفحة تساوى ١٢ مدأ وكانت الصفحة تساوى ٦٠ صاعاً^(٧)، فكان المد يعادل خمسة صاعات^(٨).

هذا ولم تبذل دولتا المرابطين والموحدين جهداً لتوحيد هذه الموازين والمكاييل لذلك استغل التجار فوضى الموازين والمكاييل فى أواخر العصر المرابطى استغلالاً أضر بمصلحة المستهلك، فكانوا يغشون فى مقاديرها أو يستعملون الحجارة بدلا عن صنع حديد حتى أن كتب الحسبة فى هذه الفترة لتزخر بالأمثال عن أساليب التجار هذه وتقرح قطع كل ذلك وأن يسم الأكيال والموازين باسم معلوم عنده^(٩).

(١) البكرى: المغرب ص ١١٧.

(٢) انظر رسالة السقطى ص ٣١.

(٣) عن اختلاف الموازين والمكاييل انظر: السقطى: رسالة فى الحسبة باب الموازين والمكاييل.

(٤) السقطى: فى أدب الحسبة ص ٣١.

(٥) السقطى: المصدر السابق ص ٢٨.

(٦) المد: كيل معين اختلفت سمته فى العالم الإسلامى حسب الأمكنة والعصور والمذاهب انظر: أبو الحسن على ابن يوسف: الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة نشر مؤنس ص ٨٥، ص ٨٦ طبعة مدريد سنة ١٩٨٥، سنة ١٩٦٠.

(٧) أبو الحسن: المصدر السابق ص ٨٥ طبعة سنة ١٩٥٨، ص ٨٦ طبعة سنة ١٩٦٠.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٥ ص ١١٤.

(٩) انظر رسالة السقطى: ص ١٠، ص ١٢، ص ١٣، ص ١٦، ص ١٨ ورسالة ابن عبد الرؤوف ص